تأملات في :

الأصول والمصائر

أحمد عرابي زهران

١٩٩٦م

تأملات فى

الأصول والمصائر

تأليف

أحمد عرابى زهران

الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٩٦

عنوان الكتاب : تأملات فى الأصول والمصائر
تأليف : أحمد عرابى زهران

الناشر : مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر
٤ش ٩ب المعادى – ت: ٣٧٥٢٠٣٣
المدير العام : فريد زهران
الصف والتنفيذ : صباح عامر
مراجعة : إيهاب غريب
رقم الإيداع : ١١٠١٢/٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N : ٩٧٧-٥٦٥٢-٥٣-٧

تأملات فى
الأصــول والــمــصــائــر

الفهرس

الجزء الأول

الكلمة الأولى

إن فترات التغير والتحـول التـى تجتازهـا التكوينـات الاجتماعية (خاصة إذا تعلق ذلك بهياكلهـا الأساسية) تطـرح - بطريقة تبدو تلقائيـة - كافـة الموضوعـات للنقـاش ، حتـى التـى اعتبرت بدهيـة . يمـس ذلـك الأصـول والفـروع فـى ماضيهـا وحاضرها .

والنوع الإنسانى تعرض لكثير من التحولات والتراكمات خـلال القـرن الـ٢٠ . والمتابعـة التفصيليـة لذلـك هـى شـأن تخصصى .

وعندنا ، فإن المساهمات الفكرية لرؤية كلية للنوع فـى عمومه ، ولمصر خاصـة ، لاتتجـاوز أصـابع اليد الواحـدة ، أو تتصف بالجزئية ، التخصصيـة ، أو بتمصير وتعريـب وجهـات النظر الأخـرى ؛ ممـا جعـل رؤيتهـا أحاديـة الجـانب فـى أحسن الأحوال .

مـع التنبـه والتنبيـه أنهـا تتـم فـى ظـل كـم هـائل مـن المحظورات والمحاذير التى جعلت منا منطقة منزوعة التفكير ، رغم أنه العلة الإنسانية .

وتقوم الخطوط الحمـراء المعلنـة والضمنيـة التـى تشكل شبكة عنكبوتية بتحديد قوالب وأنماط فكرية محددة يصعب معهـا القيام بإنجاز حقيقى ، كما أنها لاتساعد على فهم وتصور الواقـع الجديد ، فمثلا نجد :

١- المحاذير والممنوعات السياسية .

٢- المحظورات والممنوعات وخطوط التكفير الدينية .

٣- الانتماء الفئوى والحواجز الاجتماعية .
٤- الحائل المادى (فى مجتمعنا: المفكر وظيفة غير معترف بها ، وشروط وجوده المادية مشكلة) .
٥- التوصيف الأكاديمى (الخلط ، وتوزيع الألقاب ، والوظائف) .
٦- الجهل المعرفى والمعلوماتى (لعدم التوفر ، التجزئة، الابتذال ، التخصصية المفرطة ، ارتفاع تكاليف الحصول على المعلومات ، التقوقع ، المرجعية النمطية ، الاستسهال ، المعايير الأمنية للمعرفة ... إلخ) .
٧- التركيبة العائلية (أساليب التربية النمطية الأسرية ، توزيع العمل العائلى ، أشكال العلاقات الأسرية ... إلخ) .
٨- التفرقة الجنسية (بين الرجل والمرأة) .
٩- نقل الخبرة (التعليم بأساليبه ، برامجه ، أهدافه ، مؤسساته ، المشتغلين به وفيه ، الاحتكاك الثقافى ، الإعلام وأشكال توجيهه والسيطرة عليه ، الأساليب المؤتمراتية ، تكاليفها... إلخ) .
١٠- المعايير والسياسات الأمنية .

وهى محاذير ومحظورات وحواجز يمكن التعامل معها بشكل أو بآخر ، إلا ماتعلق منها بالسياسة والدين : فالأولى لها مواصفاتها وأطرها ، والثانى له قوالب يستحيل تجاوزها ، ومن فعل ، يتدرج اتهامه من ضلالة مؤقتة أو اجتهاد خاطىء ، انتهاء بتكفيره ، ويصبح معها قتل المفكر واجبا دينيا (وما عداه من باب اللغو فى الحديث) . ويصبح المعيار الوحيد هو التقليد والمحاكاة ، ومن ثم لانجد فروقا بين محاكم تفتيش أوربا المسيحية ، وبين مسميات عصرنا التى تبدأ بـ حراس الثورة

الإيرانية ، وتنتهى بأشد الجماعات تطرفا ، مرورا بـ جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر السعودية .

شكل ذلك دافعا قويا لتلك المساهمات ، ومن وجهة نظر مصرية ، فى مواجهة العبث والتشويه والابتذال . ورغم أننى لست "أكاديميا" ، إلا أننى أثق فى قدرة الإنسان على استيعاب معارفه المختلفة .

هى محاولة مصرية فى مواجهة المحاولات غير المصرية الأسس ، والأهداف ، المستمرة والمتجددة منذ قرون عديدة ، لإلغاء الوجود المصرى وطمس حضارته ، والعمل على إبعادها عن الركب الإنسانى ، تلك الحضارة الأكثر عراقة وأصالة فى التاريخ الإنسانى ، وهى كل متصل ومستمر منذ أبعد من الألف الـ١٢ق.م وإلى مستقبل بعيد ، داخل حضارة النوع الكلية . وهى تميز تلك الجماعة الإنسانية التى سكنت وادى النيل والمتعارف عليها من العصر التاريخى بـ (مصر) بشروطها الطبيعية المعروفة ، كما أنها تمثل أحد نماذج " المجتمع الطبيعى " (اصطلاح ليس له مدلول أو معنى سطحى متداول) ولم تتجاوز عموما وجهات النظر التى تعرضت لمصر عن أحد اشكال المدارس التاريخية ، أو الماركسية (خاصة أنماطها الأسيوية للإنتاج) ، أو مدرسة القومية العربية ومرادفاتها ، والمدارس الإسلامية التى شطرت مصر إلى قسمين لارابط بينهما : الأول جاهلى ، وثنى ، .. إلخ ، والآخر بعد قدوم العرب ، ومرجعيته الوحيدة لكل شىء وأى شىء ، هى المرجعية القبلية التى سادت بعضا من قبائل شبه الجزيرة العربية قبل وبعد ظهور الإسلام ، أى تصبح المرجعية المصرية مرجعية غير مصرية للتعامل معها فى ماضيها وحاضرها

ومستقبلها . وقد نجحت تلك المدارس فى تجميد وتحجيم أو قولبة الفكر .

الاتجاه الأساسى (أو التطور) :-

إن محصلة علاقات المادة – الطاقة ، تعبر عن نفسها من خلال تكوين "مادى" يتمثل فى" الشكل" ، وتكوين "لامادى" من خصائص وقوانين وعلاقات ... إلخ يتمثل فى "الوظيفة" ، وتلك المحصلة المعروفة بالأشياء المادية هى "شكل – وظيفة" معا . وكل تغير فى العلاقات ينعكس فى المحصلة ، وعندما يكون التغير فى طبيعة العلاقات نفسها ، فإنه يكون تغيرا مركزيا ونوعيا ، ممايسمح بظهور شكل – وظيفة جديد ، أى : يحدث التطور .

فالتطور هو تغير نوعى فى محصلة علاقات المادة – الطاقة ، عاكس لتغير فى طبيعة العلاقات نفسها ، ومنعكس فى شكل – وظيفة جديد . وهو – بهذا المعنى – يشكل الإطار العام لهذه المساهمة ، ليس كمرادف لغوى للنمو والتغير والتبدل ... إلخ ، ولكن كقانون عام وكلى ، من خصائصه : الصلاحية للبقاء وقوته – المستوى الكمى له معنى كيفى فى شروط محدده – النهاية الحدية الجزئية والنهاية الحدية الكلية – الشكل المادى للعلاقة والناتج العلائقى للمادة هو : "محصلة نوعية التغير النوعى لمرحلة أعلى يحتوى المراحل السابقة لـ "الأشكال – الوظائف" ....إلخ

وللتطور مراحل مختلفة ، فى المرحلة نجد : التغير ، التبدل ، التحول ، النمو ، التراكم ، التخصص ... إلخ ، وهى عمليات تعبر عن تنوع طرق وأساليب تحقيق " الشكل –

الوظيفة المركزى ، والنمو المطرد لتلك العمليات يسمح لها بالوصول إلى نهايات حدية ، حيث تبرز كل جزئية علاقية اتجاها معينا داخل المحصلة . وعندما تعبر كل الجزئيات العلاقية عن تمايزها الخاص ، تكون المحصلة قد أبرزت كافة الاتجاهات ، والتخصصات ، فى تنوع أدائى للشكل – الوظيفة ، فتصل إلى نهاية حدية ، مما يتيح إمكانية ظهور التغير النوعى ، الذى كان جنينيا فى تلك المرحلة ، أى أحد العلاقات الداخلية ، متحولا – بلغة علم الوراثة – إلى صفة سائدة فى الأنواع الجديدة ، فيعبر عن المرحلة الجديدة ، وتتم عملية التطور بتمام تحولها إلى وظيفة مركزية فى تلك الأنواع – وهذه المرحلة .

وبهذا الصدد ، فإننا نرفض الابتذال اللغوى ، والعبث الفكرى لمفهوم التطور ، وكذلك المقارنات السخيفة التى لامعنى لها ، كما أن المفهوم السابق يساعدنا على تحديد ثلاث المراحل الأكثر حداثة فى التطور . وتلك المراحل امتداد نوعى لبعضها ، متواحدة ومتكاملة معا ، وكل مرحلة تحتوى المراحل السابقة كشكل – وظيفة ، كما يتشكل فى كل مرحلة سابقة الاتجاه المعبر علاقيا عن المرحلة التالية .

أول مرحلة هى : المادة غير الحية ، حيث العنصر المادى هو " الشكل " ، والقدرة على التفاعل هى " الوظيفة " بالإضافة إلى بقية المواد المكونة من هذه العناصر .

"الشكل " هنا يظهر طبيعة علاقات المادة – الطاقة ، ذات الاتجاه التراكمى ، ومركزية الوظيفة هى قدرته على التفاعل ، مهما كان شكل ودرجة وأسلوب التفاعل ، والتى تعنى مقدرة " الشكل" على التعامل : داخليا فى الاحتفاظ بكينونته ، وخارجيا فى قدرته على تكوين مواد جديدة .

والتنوع في المواد غير الحية يعكس تنوعا مناظرا في طرق وأساليب الأداء الوظيفي مهما كانت حالة الشكل التواجدية، ومهما كان أسلوب ودرجة وشكل التفاعل .

ويلاحظ مظهران أساسيان للتفاعل :

(أ) مظهر مادى أو الأشكال المختلفة - أو المواد الناتجة (كربون+أكسجين ـــ أول أكسيد الكربون أو ثانى أكسيد الكربون (تسخين ماء) بخار ماء تبريد وضغط الهواء ـــ هواء سائل ، الحالة البلازمية ... إلخ) .

(ب) مظهر لامادى أو الأداء الوظيفي - أو الخصائص والعلاقات (الجاذبية ، القوة ، الحركة الموجية ، الكهرباء، انعكاس الصورة ، التأثير الحرارى .... إلخ) .

كما يتضح الاتجاه التراكمى ، في الكم المحدود للعناصر (المكتشف منها حتى الآن ، وغير المكتشف ، الكوكبى ، والكونى) . وكم نواتج التفاعل الموضوعى والاحتمالى يتخذ اتجاها يعبر عن محدودية في "الشكل" مقابل التعبير والأداء الوظيفي اللامتناهى .

وأحد الجزئيات العلاقية هنا نمى اتجاها تخصصيا هو التفاعل المكون للمواد العضوية ، حيث سيسمح ذلك في تكوينه المطرد والنامى بظهور شكل - وظيفة ، قادرة على تكرار نفسها .

ولم يسد هذا الاتجاه ويعبر عن نفسه إلا بعد وصول كافة الجزئيات - العلاقية الأخرى إلى نهاية حدية (في مرحلة ماقبل التدخل الإنسانى) ، فمثلا نجد :- الأصلب - الأكثر مرونة - اللزج - الأبطأ في التفاعل - جيد التوصيل الكهربائى - العازل - المشع - المتعادل كهربيا .... إلخ كتنوعات في

الوظيفة ، كما نجد :- النجم - الماس - الهواء - الهليوم - الكربون - الذرة - الكوارك ... إلخ كتنوعات فى الشكل . وظهور المواد العضوية أظهر حدوث تحول نوعى متنام داخل الوظيفة نفسها ، بحيث يصبح التفاعل كتكرار لنفسه منتجا لمثيله، والتحول التدريجي والبطيء فيه من اتجاه تخصصى داخل المرحلة ، إلى صفة سائدة بالمعنى الوراثى ، إلى اتجاه كلى و مركزى ، سمح بظهور المرحلة التالية للتطور .

مرحلة المادة الحية : الكائنات الحية هى " الشكل" ، وقدرتها على إنتاج مثيل لها هى "الوظيفة ".

وتنوع الكائنات الحية يوضح النمو التخصصى فى مختلف الجزئيات العلاقية ، والوصول بها إلى نهايات حديه ، كما أنها عبرت من جانب آخر عن الامتداد النوعى للمرحلة السابقة ، التى أصبحت جزءا فقط ونوعيا أيضا فى المرحلة الجديدة . ويجب التأكيد على أن ظهور الكائن الحى وانتشارة وتنوعه هى مرحلة فى التطور ، عكست تغيرا مركزيا فى محصلة علاقات المادة - الطاقة . وبناء عليه ، فالمقارنة بين الكائن الحي والمادة غير الحية - مهما كان شكلهما - عبث لاطائل و لافائدة منه (ماعدا ماإتصل منه بالبحث العلمى) . والمقارنة الوحيدة والممكنة بين "الحديد" و" الفيل" تعنى تجريدهما من شكليهما ووظيفتيهما ، فلا يبقى منهما إلاكونهما مادة - طاقة.

والاختلاف النوعى بينهما يؤدى إلى :-

١- اختلاف نوعى فى العلاقات الموجودة بين الكائنات الحية ، عن تلك الموجودة بين المواد غير الحية .

٢- اختلاف نوعى فى الشروط الوجودية لكل منهما .

ملاحظة : شروط الوجود ذات شقين : **مادية** : تتعلق بوجود الشكل ، وتسمح للوظيفة بتأدية مهامها . **لامادية** : مرتبطة بالوظيفة ، كممارسة ، وقدرتها على التأثير فى الشكل . وهى ليست صيغ رياضية أو كيميائية ، ولكنها حصيلة نوعية مثل : الجاذبية ، الغذاء ، النظم الصوتية ...إلخ .

ويلاحظ توحد فى شروط وجود المواد غير الحية ، وتمايز واضح فى شروط وجود الكائنات الحية .

كما وصلت أيضا الاتجاهات التخصصية إلى نهايات حدية (الهيكل العظمى – الأطراف – جمع وتخزين الغذاء – اللحم – ... إلخ).

ويمكن بشكل سردى أن نسجل كافة الاتجاهات ، ولكن دائما تظل الوظيفة المركزية هى إنتاج مثيل له ضمن تلك الاتجاهات . فى تلك المرحلة كان المخ – الذى يتأكد كتخصص يوما بعد يوم ، ويزداد تحوله من جزء إلى كل ، يتحول إلى صفة سائدة تسمح بظهور مرحلة جديدة فى التطور هى مرحلة المادة الفاعلة . الإنسان هو الشكل ، والقدرة على التفكير والفعل هى الوظيفة .

فى البداية ، نشير إلى أنه فى المرحلتين السابقتين كان التنوع فى " الشكل" وليس فى "الوظيفة" ، بينما فى الإنسان ، هناك استقرار فى الشكل ، وتنوع فى الوظيفة (رغم كم التحورات التى تمت على أجزاء فى الشكل الإنسانى – لكن كلية الشكل استقرت ماديا – كمرحلة فى التطور من زمن سحيق ، بتأكد " الوظيفة" وإلى مستقبل بعيد) .

بينما وظيفة الإنسان المركزية (قدرته على التفكير ، وممارسة الفعل) هى التى تنوعت واختلفت ، فى (الطرق –

الأساليب – الموضوعات – الأهداف ......إلخ) ، تلك القدرة التى تعتمد فى جوهرها على تحويل الموضوعات إلى أفكار (خبرة) ، ونقلها إلى الآخرين ، وإلى الواقع من خلال الفعل فى مظاهره المختلفة (فى إنجاز مادى مباشر ، أو لامادى كالفن – العلم – الدين – الفكر .... إلخ) .

كما اختلفت طبيعة العلاقات داخل النوع الإنسانى نوعيا عنها فى المواد غير الحية ، والكائنات الحية ، وكذلك شروط الوجود الإنسانى (فقد تحولت من توحد فى المواد غير الحية إلى تمايز فى الكائنات الحية ، إلى انفصال واضح فى الإنسان) ، التى تميزت بشكل وأسلوب جديد لتواجد الإنسان نفسه . واحتوت المرحلة الإنسانية (نوعيا ، ووظيفيا) المراحل السابقة ، التى أصبحت جزءا من الكل شكلا – ووظيفة .

والخاصة الأساسية للوظيفة الإنسانية هى أنها وظيفة نوعية ، أى تمارس وتؤدى بـ / ومن خلال : النوع فى مجموعه .

فأداء الوظيفة فى المواد غير الحية يتم بشكل جزئى (تفاعل الأكسجين لايعنى تفاعل كل مادة الأكسجين بل جزء منه فقط) ، والكائن الحى يؤدى وظيفته بشكل فردى ، وحدة الشكل – الوظيفة ، وفرديته هى وحدته (فلا يلد جزء من فيل فيلا آخر، وليس من الضرورى أن تلد كل الأفيال إذا ولد فيل) .

بينما فى الإنسان ، لاتمارس الوظيفة إلا من خلال النوع وبه وله ، مما جعل طريقة وأسلوب التواجد الإنسانى مختلفة ، فالمادة غير الحية تواجدت بشكل تراكمى ، والكائن الحى بشكل فردى ، أو قطيعى (تراكم فردى) ، بينما نمى الإنسان شكلا اجتماعيا له ، هو الجماعة الإنسانية ، التى أفرزت فيما بعد

التكوين القبلي والمجتمعي . وبالتالي ، تصبح شروط وجود الإنسان هي شروط وجود الجماعة الإنسانية ، وفيما بعد شروط وجود المجتمع ، أي : شروط وجود النوع ذاته . وضمان وجودها المادي هو ضمان لوجود الإنسان الفرد . ويتحقق ذلك بثلاثة أشكال لشروط الوجود : شروط وجود مادية (كمحصلة فعلية لنشاط الجماعة في / وعلى : الواقع الموضوعي) ، وشروط وجود وظيفية (تحقق نمو مطرد للوظيفة) ، وشروط وجود اجتماعية ، (كتنظيم شئون الجماعة ، علاقاتها ، إداراتها، .... إلخ) ، وهي شروط ليست متراصة أو منقطعة الأوصال ، ولكنها متفاعلة ، مؤثرة في بعضها ، لها حصيلة نوعية – إنسانية . والأداء الوظيفي الإنساني يصل في بعض الجماعات بفعلها المادي المركزي إلى نهاية حدية ، يستوعب من خلال النوع في مجموعه ؛ لتصبح بعدها عملية نمو الوجود الإنساني ممكنة في مسيرة التطور (كقانون عام) .

كما تظهر خصائص قانون التطور بشكل يختلف عنه في مراحله السابقة – فمثلا : الصلاحية للبقاء وقوته ، في المادة غير الحية ، كالحديد – هي : ذلك الجزء منه ، القادر على أن يكون حديدا (كمادة وكتفاعل) ، فصلاحيته وبقاؤه في قدرته على التفاعل مع المواد الأخرى لتكوين مواد ومركبات حديدية . وفي الكائن الحي ، تعني : قدرته على إنتاج مثيله ، وتلاؤمه وتكيفه مع شروطه الموضوعية .

وفي الإنسان ، فالبقاء للأقوى والأصلح ، لايعني الإنسان الفرد ، ولكن الجماعة الإنسانية وقوتها وصلاحيتها ناتجة عن قدرتها على القيام بوظيفتها ، أي النمو والتطوير ، وأن تكون جزءا فاعلا ومتفاعلا داخل النوع ، بما تعكسه

الحصيلة النوعية الدائمة لشروط وجودها . واحتواء الإنسان على الوظائف السابقة يعنى أنها جزء من كليته (الغذاء – تفاعل ، إنتاج المثيل ...إلخ) ، ولكن إنتاج المثيل فى الإنسان يتحول فى أساسه إلى إنتاج الجماعة نفسها ، والنوع . والتفاعل له صور أخرى (كالتفاعل بين الأفكار) والجماعة التى تعجز عن تأدية وظيفتها تنفصل عن النوع ، وتصبح موجودة كشكل متحفى لمسيرة تطور الإنسان ، أو موضوعا للفعل الإنسانى ؛ أو يصبح التخلص منها – حتى كشكل مادى –هدفا لنمو وتطوير بقية الجماعات ، أو يمكن أن ينتهى ماديا كنمط خاص داخل مرحلة معينة للتطور .

الحضارة

الإطار العام

هى مفهوم يعبر عن كيفية وجود الجماعة الإنسانية كحصيلة نوعية لمجوعة الفعل الإنسانى فى أشكاله ومظاهره المختلفة ، كما أنها نوعية ، أى حضارة النوع فى مجموعه ، لأن الإنسان يوجد ويفعل بشكل نوعى .

ولذلك هى كلية وعامة ، تعكس نمو الوجود الإنسانى ذاته ، مسارها هو المسار الإنسانى . فلا حضارة دون إنسان ، ولا إنسان دون حضارة ، مهما كانت درجتها وشكلها ، ومهما كان شكل التواجد الإنسانى . وتخضع لقانون التطور بخصائصه المختلفة ، ولها مراحلها المختلفة ، التى تتشكل كل منها من محصلة أنماطها الداخلية المتنوعة و المتعددة ، تعدد تباين وتنوع وجود الإنسان ضمن مختلف الشروط الطبيعية ، ووفق نمو الجماعة الداخلى ، وقدراتها التفاعلية والوظيفية . وبذلك ، تتباين الأنماط داخل المرحلة الكلية للنوع : منها أنماط وصلت إلى نهاياتها الحدية ، وأخرى تعبر عن الاتجاهات الجنينة للمرحلة الحضارية الجديدة فى مسيرة تطور الإنسان.

إن حضارة النوع هى حضارة المجموع ، تحتوى مراحلها السابقة (بأنماطها المختلفة) ، فهى امتداد نوعى لها ،

يعكس درجة تطور الوجود الإنسانى ، .. فهى نوعية ، كلية ، عامة ، خاضعة لقانون التطور .

وبالتالى ، لاحديث عن حضارة مندثرة ، أو إقامة فواصل بين الحضارات ، أو وضعها فى حالة صراع ، كما أنها ليست واقعا ماديا لفكرة معينة (العكس هو الصحيح : فأفكار حضارة ما هى تعبير عن أسلوب وطريقة الجماعة فى تناولها الفعلى لموضوعاتها المختلفة) والألفاظ والتعبيرات من نوع (اندثار ، تحجر ، ... إلخ) هى تعبير ات مجازية قلقة عن حالة نمط حضارى حدى معين لجماعة ما فى شروطها المحدودة .

لأن الحضارة هى مفهوم يعكس الوجود الإنسانى ، فإن تميز مراحلها الأساسية يرتبط بالفعل الإنسانى المركزى للنوع فى مجموعه فى تلك المرحلة . والتواجد والوجود الإنسانى لم يتم فى فراغ ، أو أنابيب اختبار ، أو بأشكال سابقة التجهيز والتفصيل ، ولكنه وجود فعال ومتفاعل ضمن شروط طبيعية محددة أثرت ، ومازالت ، فى ذلك الوجود وتداعياته المختلفة . فرغم الخصائص الكلية للشروط الطبيعية كوكبيا (الشمس ، الليل، الحجر ، النبات ، الماء ، الأرض،....إلخ) ، إلا أنها متباينة الخصائص على الناطق الجغرافى ، ومتميزة فى الجوار والمكان داخل هذا النطاق ، تصل أحيانا لشكل حدى (الصحراء، المناطق القطبية ، الغابة الاستوائية ، أعماق المحيط ، ..... إلخ) . كما أنها شروط قابلة للتغير (البطىء - أو المتسارع - أو المفاجىء) مما يؤثر على وجود الجماعة ، وتفاعلها وتعاملها مع ذلك . ويتباين ذلك من جماعة إلى أخرى ، كما يتأثر بدرجة نموها ، وحالة النوع فى مجموعه (المواصلات - الاتصالات، تصلح مثالا مباشرا من جانب ، ومن جانب آخر يتجسد المثال

الثانى فى قدرة تقبـل وتعـامل الجماعـات المختلفـة مـع الخـبرات المنقولة ، ذات الصفة العلمية) .

ولأن الإنسان كفرد وجماعة هو جزء من تلـك الشـروط (لكنه الجزء الفعال والفـاعل) ، فقـد سـاعده ذلـك علـى الانتشـار الجغرافى ، والتعامل مـع تلـك الشـروط فـى تنوعهـا ، كمـا أنهـا شكلت امتدادا نوعيا له ، فالإنسان كشكل هو : جزء مـن الكـل ، وكوظيفة هو : كلية الأجزاء .

والحضـارة فـى بدايتهـا ارتبطـت - مباشـرة وبطريقـة عضوية - بالشروط الطبيعية لوجود الجماعات ، وتنوع درجات وأشكال تعاملها مع تلك الشـروط (النهـر ، الحجـر ، الحيـوان ، البرد ، البركان ، البرق ..... إلخ) .

وبنـاء علـى مفهومنـا للحضـارة ، اعتمـادا علـى الفعـل الإنسـانى المركـزى (لإنتـاج وإعـادة إنتـاج النـوع) ، فإنـه يمكـن إعـادة تصـور مراحـل تطورهـا المختلفـة فـى : "حضـارة جمـع الغذاء - حضـارة الفائض الغذائـى - الفترة الانتقالية أو التباين بين النمطين : الرعـوى ، والزراعـى - الحضـارة الزراعيـة - النمـط الحضـارى الحركـى - احتمـالات المسـتقبل أو حضـارة " الأدوات - الطاقة " .

وهو تطور يتوافـق وفعـل الإنسـان المركـزى ، وتفاعلـه مـع الموضـوعـات "كشـكل" ، ثم فـى آخـر مرحلـة " كشـكل - وظيفة " .

كمـا يتطلـب ذلـك تعديـلا آخـر يتصـل بـ مـاقبل وبعـد التاريخ، حيـث مـاقبل التـاريخ هـو مـاقبل الحضـارة الزراعيـة ، والعصـر التاريخى بداية من تلك الحضارة ، وتعتبر الألف الـ١٢

ق.م اختيارا مناسبا للتوزيع السابق . والعصر التاريخي يقسم إلى :

من الألف الـ١٢ ق.م إلى الألف الـ٧ ق.م المرحلة النهائية للنمط الزراعي .

من الألف الـ٧ ق.م إلى الألف الـ٥ق.م تحول النمط إلى حضارة للنوع – والانتقال إلى التكوين المجتمعي .

من الألف الـ٥ق.م إلى القرن الـ١٤ أو الـ١٥م النهاية الحدية للحضارة الزراعية ، مع تداخل فترتها المتأخرة مع بداية النمط الحضاري الحركي والمستمر حتى الآن والمعتبر بمثابة فترة انتقالية .

وبهذه الطريقة نكون قد خرجنا عن الشكل المألوف للتوزيع التاريخي المعمول به ، والذي يعتمد على أشياء أخرى مثل : اسم مكان الأثر المكتشف ، امتداد الأثر في الزمان والمكان ، استكمال أشياء معينة (كاللغة المكتوبة) ، التجنيس ، المصنفات الدينية ، التأريخ (لحكام ، أشخاص ، حروب .. إلخ).

ونشير في النهاية إلى أن للإسقاط اللغوي والسياسي والديني مخاطره ، في الفهم الخاطئ للحضارة ، وأنماطها ، وأساليبها ، خاصة أننا لانملك للتعبير – كوسيلة وأداة – إلا لغتنا وظروفنا ومحاذيرنا .

حضارة جمع الغذاء :-

الأطول في تاريخ النوع الإنساني ، تمتد خلفنا بضع ملايين من السنين ، تمثل الانتقال النوعي للإنسان كتطور . لم يكن مسارها خطا مستقيما محفورا وممهدا ، لكنها شقت الطريق بمجموع الفعل والنشاط الإنساني بخطا بطيئة ، أكيدة ، وصلت

بكل جزئية للفعل لنهايته الحديثة لتسمح بالتحول النوعي ، تركزت وظيفته في قدرته على ممارسة وجوده ككائن حي وتأكيده ، فكان فعله المركزى هو جمع الغذاء .

وقد تكونت من حقبتين متداخلتين ، يمكن التمييز بينهما ، بناء على الإنجاز الرئيسي فيهما ، حقبة النهاية الحديثة للإنسان " كشكل" ، وحقبة التغير في شكل التواجد الإنسانى ، باتجاه التكوين الجماعاتي له - أو أحد أشكال التعبير عن وظيفته .

<u>في الحقبة الأولى :-</u>

- عدم التخصص الغذائى .
- تأكيد وجود الإنسان ككائن حى .
- الانتشار الأفقى له .
- ضمان وتأكيد النوع هو عمل الوظيفة .
- الوصول بالشكل الإنسانى لنهاية حدية - أو استقرار الشكل .

<u>في الحقبة الثانية :-</u>

- الانفصال نهائيا مع الكائن الحى .
- الاتجاه للاستعمال المباشر للمواد هو موضوع الوظيفة المركزى .
- المحاكاة الصوتية ، بداية النظام الصوتى .
- تحول جمع الغذاء إلى عمل جماعى مطرد .
- الاتجاه نحو تكوين الجماعة الإنسانية - كشكل وجودى للنوع .

والاتجاه نحو تكوين الجماعة قد حول الفعل الإنساني من عمل فردى (فردية العمل) إلى محصلة كلية لعمل أفراد الجماعة ، التى ارتكز عليها فيما بعد تكوين الكم الغذائى ، وتوزيعه ، ثم تحويله إلى موضوع للخبرة الإنسانية ، يمكن اكتسابها ونقلها من وإلى الآخرين . ولكن ظل تكوين الجماعة فى تلك الفترة ، امتدادا للفرد ، واقتربت من كونها حصيلة كمية أكثر منها نوعية لمجموع فعله وشروط وجوده .

هذا ، مع عدم الخلط بين تكون الجماعة الإنسانية ، وتجمع ما لكائنات حية ، كالمثل الشائع عن النحل والنمل ، فتجمعها هو أسلوبها فى القيام بوظيفتها ، ولا تستطيع أن تؤثر أو تتأثر بتجمعها ، كما أن هذا التجمع لايشكل موضوعا لها أو منفصلا عنها ، بينما الجماعة الإنسانية - مهما كانت درجتها وشكلها - هى فعل إنساني وموضوع له .

وندرة الآثار المادية لتلك الحضارة - إن وجدت - تدل على الامتداد الزمنى العميق لها ، والكم العددى المحدود للإنسان كنوع ، خاصة فى الحقبة الأولى ، كذلك الشكل الطبيعى لتواجده، وتوحده مع شروطه الطبيعية ، وعدم تميز الوظيفة ، فى فعل مادى ، والتى تركزت فى تأكيد وتحقيق وجوده ككائن حى . وهى - بشكل عام - لن تنفصل أو تتميز عن آثار بقية شروطها الطبيعية لذلك العصر .

والقدرة على تحقيق كم غذائى متزايد ، خلال فترة زمنية معقولة ، سمح بتكوين فائض غذائى للجماعة ، منحها قدرا من الوقت يسمح للإنسان بممارسة وظيفته على واقعه المادى وشروط وجوده ، ومع نهاية الحقبة الثانية كان هناك نوع من التكافؤ النوعى بين الفائض الغذائى المستحدث وفائض

الوقت ، مما يعنى توفر حد أدنى من الشروط المادية تسمح بالمقابل للإنسان أن يتخذ منها ومن نفسه وجماعته وواقعه ، موضوعا له .

حضارة الفائض الغذائي :-

يتمثل النوع فى مجموعه عناصر الحضارة السابقة ، فقد عكس ذلك النهاية الحدية لها ، مما أفسح المجال أمام اتجاه تطورى جديد ، لتحول الفعل الإنسانى المركزى إلى تحقيق وضمان ذلك الفائض وليس جمعه فقط ، وبتحويل الجماعة إلى وجود نوعى وليس كميا له ، أى يصبح له وجود " اجتماعى" بجانب الوجود المادى ، وضمن تلك الشروط .

واتساع مجال الأداء الوظيفى ظهرت ملامحه الأساسية من خلال :-

١- استكمال الانتشار الأفقى - الجغرافى للنوع .
٢- التوصل إلى استخدام وعمل النار .
٣- الاتجاه نحو الاستقرار المكانى المؤقت للجماعة .
٤- التعامل مع المظاهر الخارجية للمواد ، كشكل .
٥- نمو شروط الوجود الاجتماعى .
٦- اكتساب وتخزين الخبرة .
٧- استقرار ونمو النظم الصوتية .
٨- **بدايات التعبير الفنى .**

وإذا كانت الحضارة السابقة قد عبرت عن الانفصال النوعى للإنسان ، كمرحلة فى التطور ، فإن الحضارة الجديدة قد عبرت عن نمو واتضاح الوظيفة نفسها ، حيث بدأت المظاهر المختلفة للفعل الإنسانى الدال عليها تتميز وتتضح أكثر فأكثر . ورغم

تميز فترات الحضارة الأولى بالكلية ، والشمول ، إلا أن فتراتها المتأخرة أبرزت تباينات مهمة بين أسلوبين آخذين فى التكوين ليشكلا فيما بعد نمطين حضاريين مختلفين .
والأفراد والجماعات التى لم تستطع أن تستوعب التطور الحضارى ، وتنتمى إليه ، اندثرت حتى كشكل ؛ لأنها لم تستطع أن توجد كوظيفة .

ومع استقرار حضارة الفائض الغذائى ، أصبح وجود الإنسان هو وجود الجماعة ، ودفع الاستقرار فى المكان إلى قدر أكبر من التعامل مع شروط الطبيعة ، بتحولها المتسارع إلى موضوعات للتفكير والفعل والعمل ، وخاصة أن الحضارة السابقة وصلت بالاستعمال المباشر للمواد إلى نهاية حدية (يقصد بالاستعمال المباشر : استخدام الإنسان للمواد بالشكل والطريقة الموجودة بها فى الطبيعة ، وقد يمارس عليها فعلا يتصل بالتجزئة كتعديلات خارجية ومباشرة على الشكل .)
والتعبير الفنى هو الذى يظهر العمل الفكرى ، ذلك الجانب اللامادى المتطور فى النوع الإنسانى ، فالفن مفهوم لا علاقة له بالكائن الحى ، لافعل ولاموضوع له . والإنسان هو الذى عبر عن القيم الموجودة فى الموضوعات المختلفة فنيا ، ويلاحظ أنه اتسم فى تلك الفترة بـ"محاكاة أولية" للشكل مع الاستخدام المباشر للخط واللون كمادة طبيعية ، ممايدل على بدايات تعرفه على العام والمشترك فى مظاهر الموضوعات حوله وبدايه تعامله معها كأنواع ، كذلك التعرف على شروط الوجود الإنسانى نفسه [كشكل (حيوان ، نبات ، ...) ، كمؤثر (شمس ، ليل،..) ، كوجود (ماء ، غذاء ، ..)] .

والامتداد الزمنى الكبير لتلك الحضارة ، أفسح مجال اكتساب ، وتراكم خبرة هذا التواجد وكيفيته ، مما أدى إلى تغير يتصل بنقل تلك الخبرة المكتسبة ، وتحويلها إلى فعل إنسانى متميز عن شروطه المادية [الفن ، الصوت ... كأمثلة] ، مما شكل الدوافع الأساسية لبروز نمطين حضاريين : –

من الملامح الأساسية للنمط الأول نجد :

١– استقرار الجماعة فى المكان هو عملية مؤقتة .
٢– استمرار التعامل مع "الشكل" كمظهر خارجى .
٣– ضمان الفائض الغذائى يبقى عملا تراكميا لجمع الغذاء .
٤– خصائص وجود اجتماعى مميز بالتحول إلى الفعل المادى المباشر على الإنسان .
٥– اتجاه العلاقات داخل الجماعة لصالح الشكل أكثر منه لصالح الوظيفة .

كما يتحول فيه مفهوم الجماعة الأقوى إلى : الجماعة القادرة على ممارسة فعل مادى على الجماعات الأخرى ، وليس الجماعة الأقدر وظيفيا ، وينسحب هذا المفهوم على العلاقات داخل الجماعة نفسها .

وهكذا ، فإن تراكم الخبرة يسير فى اتجاه ، لاكضامن للفائض الغذائى ، ولكن كضامن للقدرة الشكلية للجماعة ، ويصبح الكم العددى لها هو الضامن لقدرتها الشكلية ، وبديلا عن قدرتها الوظيفية .

بينما نجد جماعات أخرى تنمى نمطا مغايرا ، بتحويل الفعل الإنسانى المباشر إلى فعل قادر على التشكيل ، بالانتقال من التعامل مع المواد كمظهر خارجى إلى التعامل المرتبط بها كشكل له خصائص معينة . فمثلا : يتحول من تعامله المباشر

مع كائن حى – كمادة غذاء – إلى إعادة تشكيله ، بالحفاظ عليه، ليستخدم فى إنتاج غذاء ، أو إنتاج مثيله ، وذلك بمساعدة مجموع الفعل الإنسانى المتعارف عليه كشكل – وظيفة . ومن ملامح هذا النمط نجد :

١- اتجاها متناميا للاستقرار فى المكان .
٢- التحول فى التعامل مع الموضوعات إلى اعتبارها شكلا له خصائص .
٣- ضمان الفائض الغذائى يتحول تدريجيا إلى محصلة نوعية وليست كمية لمجموع فعل الجماعة .
٤- بروز سمات وخصائص علاقات الجماعة خارجيا ، وداخل الجماعة نفسها .
٥- اقتراب جماعات الجوار المكانى من عمليات تحول فى شكل وجودها الاجتماعى .
٦- التعبير الفنى يتأكد كفعل ووظيفة ، ويتجه لأن يكون ضمن شروط وجود الجماعة الاجتماعية .
٧- استقرار النظم الصوتية ، وتحولها التدريجى إلى نظم لغوية .
٨- التحول التدريجى من "استخدام" الأداة ، إلى "عمل" الأداة.

وقد طرح – وأثر – التباين فى الشروط الطبيعية تباينا مناظرا فى موضوعات الفعل والتفكير ، وكانت الشروط المناسبة للإنسان كشكل – وظيفة ، تلك التى لاتتميز بحالة حدية، – تجعل من شروط الوجود المادى شغل الإنسان الشاغل – ولكنها كانت تتصف بـ :

١- عدم التميز بحالة حدية .
٢- أن شروط الوجود المادى ممكنة ، ولاتتطلب فعلا حديا .

٣- التنوع فى تلك الشروط .
٤- أن لها صفات عامة وشاملة على النطاق الجغرافى لمجموع الجوار المكانى لجماعات معينة .
٥- أن خصائص النطاق الجغرافى تساعد على دفع وتنمية شكل الوجود الإنسانى .
٦- تأكيد وتحقيق شروط الوجود الأخرى .

وهى شروط سمحت بنمو جماعات معينة فى اتجاه يمكن أن نسميه "الوجود الطبيعى" [دون خلط مع أى مدلول سطحى متداول له] ، وجماعات نمت باتجاه "الوجود المغلق " أو "الاصطناعى".

الفترة الانتقالية [التباين بين النمطين : الرعوى ، والزراعى]:-

هى جسر العبور بين حضارة الفائض الغذائى والحضارة الزراعية ، بين ماقبل التاريخ والتاريخ ، حيث كان الاتجاه نحو الاستقرار ، وتباين طرق تكوين وتأمين الفائض ، فى ظل شروط طبيعة محددة ، هم أسس التباين المناظر فى وجود الجماعات ، التى كونت نمطين حضاريين يتوازيان أحيانا، ويتقاطعان ، ويتبادلان التفاعل والانصهار والتأثير .

النمط الأول :-

استمر فيه تحقيق الفائض ، كمحصلة كمية ، بتوفره فى مكان معين ، وهذا التنقل المستمر وعدم الاستقرار هو طابع النمط المميز ، وتحول الواقع المادى كمجال لاكتساب الخبرة إلى فعل كمى ، كبديل عن كونه موضوعا له ، مما ساعد على تحوله إلى موضوع مستقل عن الفعل الإنسانى ، بدلا من أن

يكون مادته وأدواته ، ويصبح امتدادا غريبا عن جسم الجماعة ، فلا تصبح جزءا من المكان ، ولايصبح المكان بها ومنها .

وصعوبة تخزين الغذاء النباتى ، دفعت بجماعات النمط إلى تخزين الغذاء الحيوانى ، كمنتج لمثيله ، دون فعل إنسانى ، كذلك لحفظ مادته كفعل ، فكان النمط الرعوى هو محصلة وجود الجماعة التى اندفعت فى تنمية خصائص مثل : التنقل والترحال ، حماية حيوانات الجماعة ، تنمية قدراتها على النقل والحركة .
وأصبح العمل الرعوى هو فعلها المركزى ، والذى يدور فى فلكه مجموعة أخرى من النشاطات المكملة له أو اللازمة لمعيشة الجماعة ، وقد تميز بـ :

١- أنه عمل فردى [فردية العمل] .
٢- أنه لايتطلب مهارات خاصة ولاخبرة معينة .
٣- أنه لايتطلب شروطا خاصة بالإنسان كشكل [فى السن أو الجنس أو القدرة البدنية] .
٤- أن علاقته بالمكان والأشياء والإنسان اغترابية .
٥- ضياع لمفهومى المكان والزمان .
٦- أن الكائن الحى ، موضوع الفعل ، خارج الفعل الإنسانى نفسه ، خارج قدراته ، غريب عنه ، ومنفصل ، كذلك شروط موضوع الفعل الطبيعية .

كما عملت الجماعة الرعوية فى اتجاه :

أ- الوصول بالجماعة كشكل للوجود الإنسانى إلى نهاية حدية، لم تتجاوزها ، ووجودا اجتماعيا يختلف عن نظيره فى الجماعة الزراعية .

ب- اندفعت فى عمل متصل لحماية مخزنها الغذائى المتحرك من جانب ، والجماعة نفسها من جانب أخر ، أمام بقية الجماعات الرعوية الأخرى .

ج- التنمية المطردة للقدرة على النقل والحركة [بشكل متسارع] للفرد والجماعة .

د- ظهور ونمو النشاط الإنسانى المتصل بتبادل المنافع والخبرات بين جماعات النمط وجماعات النمط الزراعى ، ومن ثم تكوين الأرضيات الصالحة لعمليات الدمج والانصهار للأنماط المختلفة داخل نسيج حضارى كلى للنوع .

هـ- الاستيلاء على مخازن الفائض الغذائى للجماعات الأخرى ، يتحول لمهمة للجماعة وفعل مستمر ومنم لها .

وهكذا ارتبط وجود الجماعة بوجود "القطيع" ، وتقلص فعلها إلى "رعى القطيع" ، والحفاظ عليه كغذاء مباشر ، ولإعادة إنتاج مثيله ، ووسيلة وأداة نقل وحركة ، وموضوع مباشر فى تكوين أساليب وأنماط معيشتهم .

والملامح الأساسية للقطيع ولفعل الرعى [وجوده ككائن حى ، الخصائص الجنسية ، استيلاء القطيع "الطبيعى" على مصدر غذائه "الطبيعى" ، سلوكيات الكائنات الحية تجاه بعضها البعض ، ...إلخ] انعكست فى أساليب وأشكال الوجود الاجتماعى للجماعة نفسها .

[مثل العلاقة المركبة بين الرجل والمرأة : ظاهرة القبول "الطبيعى" لفحولة الرجل ، ودوره ، مهمة الجماعة فى "الاستيلاء" على مصادر الجماعات الأخرى ، ...إلخ] .

ولأن إنتاج وإعادة إنتاج القطيع ماديا تتصل بـ مصادر غذائية منفصلة عن الفعل الإنساني، ولأن الدور الأساسي في هذا الإنتاج إنما يقع على عاتق الإناث ، فإن الجماعة شهدت تقسيما اجتماعيا رأسيا ، بين الذكر والأنثى أو المرأة والرجل ، الذى انحصرت نشاطاته في ممارسة الجنس ، والدفاع عن "منطقة إناثه وغذائه" ، التى تحمل عبء إنتاج الجماعة .
وتقسيم آخر أفقي للعمل به : الرعاة [قلة] ، كبار السن [قلة] ، بقية جسم الجماعة [أغلبية] ، الذى لايمارس عملا منتجا ، وتحول رجاله تدريجيا إلى مانسميه "فئة المحاربين".

وبقدر ماكانت إناث القطيع الحيواني مطلوبة ، فإن ذكور الجماعة أصبحوا المقابل العكسى لهن ، لحماية الجماعة ، والاستيلاء على مخازن وفوائض الجماعات الأخرى .أما كبار السن ، فقد وقع على عاتقهم بشكل متنام تخزين الخبرة المكتسبة، ونقلها إلى الآخرين ، التى تأسست على المعرفة التراكمية للمكان والجوار ، الخبرة القتالية ، تنظيم وإدارة العلاقات "داخل الجماعة" ومع الجماعات الأخرى [خاصة الزراعية] ، والخبرات الخاصة بأنشطة الجماعة الداخلية وأنماط معيشتهم ، وشروطهم المادية . وأمام الضياع المكاني ، والاغتراب الإنساني ، تأصلت تدريجيا عمليات التنسيب ذات الاتجاه الأبوى ، مع التحويل المتزايد في وضع المرأة بوصفها أما ، وأداة جنس . كما عملت على نظام لغوى ، نقلي وشفهي ، متنوع بتنوع الجماعات نفسها ، ويتأخر وصولها إلى النظام اللغوى المكتوب لحين تمثلها الكامل للنمط الزراعي .

ويتحول تدريجيا فى المراحل المتأخرة تاريخ الجماعة ووجودها إلى سلسلة نسب ذكورية ، خارج المكان والزمان [فليس لهم مكان ، والزمان لديهم له مفهوم كمى وليس نوعيا].

وتتجه العلاقات داخل الجماعة ومع الجماعات الأخرى إلى الأخذ بخصائص معينة مثل: الاعتماد على التسلسل النسبى، الفحولة ، الشكل المادى [القدرة البدنية] ، الخضوع الكلى والمطلق للشروط الطبيعية ، احتقار الفعل الإنسانى كالزراعة ، عمل الأدوات ....إلخ خاصة، والعمل الرعوى لايمارس أبدا .

وليس أدل على ذلك من التعبير الفنى - كأحد أهم أدوات التعبير الإنسانى ، وشرط وجودى له - فلا نجد لهم آثارا تذكر فى هذا المجال ، الذى يظهر بالذات مدى إنسانية أو عدم إنسانية الجماعة .

فيتحول التعبير الفنى لديهم إما إلى عملية نقل تكاد تكون كربونية للتعبير الفنى من الجماعة الزراعية على أسس تتماشى وتتناظر وتتناسب مع شروط وجودهم [زينة نساء ، قيم فنية سهلة الحمل ، النقل ، الملابس (بشروط رعوية) ...إلخ] أو المجال اللغوى الصوتى والشفهى . وبالتالى ، تصبح الكلمة لديهم والعمل عليها هى الممارسة الفنية الوحيدة ، وماعداها موضوعات عدانية ؛ **أولا:** لأنها تتصل بحضارات مختلفة عنهم، **وثانيا : لأنه ليس لها خصائص الجماعة والعمل الرعوى ،** **وثالثا :** لأن الأعمال الأخرى تعبر عن تفوق حضارى للنمط الزراعى ، وتلك الأعمال هى تجسيد وتخليد لها ، بينما الجماعة الرعوية تعانى حالة دائمة من الاغتراب والضياع المكانى .

ويمكننا أن نرصد ثلاثة أشكال أساسية للجماعة الرعوية وفق شروط وجودها الطبيعية :

الجماعة الرعوية الصحراوية (الصحراء العربية وأواسط أسيا ، وصحراء أفريقيا الكبرى) .
الجماعة الرعوية الجبلية (مناطق الهضاب ، وبعض المرتفعات الجبلية) .
الجماعة الرعوية السهلية (سهول الاستبس والسافانا فى آسيا وأفريقيا) .
والجماعة الرعوية الجبلية بصفة خاصة مثلت اتجاها حديا داخل تطور الجماعة الرعوية ، وكانت مزيجا كميا بين الرعى وجمع الغذاء ، وأقصى ماوصلت إليه كوجود اجتماعى كان العشيرة والجماعة الرعوية الصحراوية أيضا شكلت اتجاها حديا ، وتواجدها الاجتماعى لن يتجاوز القبيلة ، ويلعب الكم العددى "الذكورى" لها دورا أساسيا فى مقابل شروطها الطبيعية ، وفائضها الغذائى ، ولعبت قدرتها على التعامل والتفاعل مع الأنماط الزراعية المجاورة كعامل حاسم ومؤثر فى نموها.
الجماعات الرعوية السهلية رغم أنها اجتماعيا لم تتجاوز الشكل القبلى ، إلا أنها عبرت عن الاتجاه النامى والقابل للتطور داخل النمط الرعوى فى مجال النقل والحركة ، وبتمثلها اللاحق بخصائص الحضارة الزراعية الرئيسية ، أى الفعل الزراعى ، فإنها ستمهد للفترة الانتقالية الحضارية بعد الحضارة الزراعية .
والجماعات الرعوية الرئيسية التى ساهمت بدور ما ، كانت تلك المتواجدة بين الحضارات الزراعية أو على هوامشها الجغرافية الإنسانية . بينما كانت الجماعات الأكثر بعدا ، أقل تأثيرا وتأثرا بالتطور الحادث فى النوع الإنسانى ، وانضمت بقاياها المتحفية إلى البقايا المتحفية الأخرى.

وامتد الحزام الجغرافى الأقدم والأساسى بين وحول الحضارتين : المصرية والعراقية ، والحزام الجغرافى الأكثر حداثة بين وعلى هوامش أحواض الأنهار الآسيوية (الصين ، الهند) – فى السهول الآسيوية الممتدة من أواسط آسيا إلى مدخل أوربا . ولعبت نقاط التقاطع المكانى الحدية للحضارات الزراعية دورا فى هذا المجال .

واتخذت الجماعات الرعوية فى السهول والسافانا (خاصة فى آسيا) من الحركة موضوعا مركزيا للفعل الإنسانى ، بينما اتخذت الجماعات الرعوية الصحراوية بين العراق ومصر – من الانفصال عن الواقع والاغتراب عنه موضوعا مركزيا ، خاصة وقد ساعدها موقعها على تنمية فعلا مركزيا هو التجارة – أو تبادل المنافع بين الجماعات المختلفة والحضارات الزراعية بالمنطقة .

النمط الثانى :

عمل على تحويل الفائض الغذائى إلى محصلة نوعية للوجود فى المكان ، وتنمية وجوده الاجتماعى ، الناتجين من الفعل المركزى للجماعة ككل ، الذى اتخذ من الكائنات الحية (شكلا – ووظيفة) موضوعا له (فعلا وفكرا) ، موضوعا لوجوده ، بالتعامل مع قدرة الكائن الحى فى إنتاج مثيله ، وكان **العمل الزراعى هو طريق ذلك النمط** ، ومفهوم الفعل الإنسانى هنا هو : "القدرة على تربية الكائن الحى" [نبات أو حيوان] الضروريين لتحقيق الفائض ، التى ارتبطت بالاتجاه المتزايد للاستقرار المكانى ، وأن تكون هى الفعل المركزى الذى تتمحور حوله بقية الأعمال الأخرى ، ومظاهر وجود الجماعة المختلفة .

وهذا النمط ، أيا كانت أماكن وجماعات بداياته ، فإنه استقر وتأكد فى أكثر الأماكن ملائمة لشروطها الطبيعية ، من حيث الحاجة إلى قدر وسطى من العمل الجماعى . ويمكن التمييز بين ثلاثة أشكال للجماعة هنا :-

(١) جماعة "الزراعة المطيرة" [فى مناطق الأمطار والهضاب المستوية] .

(٢) جماعة "الزراعة الرعوية" [فى مناطق الواحات والعيون] .

(٣) جماعة "الزراعة النهرية" [فى أحواض الأنهار وعلى ضفافها] .

جماعة الزراعة المطيرة ، مثلت اتجاها حديا ناميا وغير متطور ، ومزيج من جمع الغذاء والزراعة، والاستقرار فى النطاق الجغرافى مع التنقل فى الجوار المكانى داخله ، وجماعة الزراعة الرعوية أيضا مثلت اتجاها حديا ، فرضته عليها الشروط الطبيعية الحدية ، والوجود القسرى لتلك الجماعة مع وبـ مركب نباتى - حيوانى محدد .

جماعة الزراعة النهرية ، وحدها ، عبرت عن الاتجاه الإيجابى ومسيرة التطور ، وأصبحت جزءا من المكان ، والمكان معروف بها ولها . وفى عجالة سريعة حول هذا النمط [لأننا سنعود له خلال الحديث عن الحضارة والزراعة] نلاحظ **أن الجماعة انصرفت إلى حفظ الفائض الغذائى والحفاظ عليه :** كيفية وإدارة توزيعه داخليا ، وتبادل جزء منه مع الآخرين ، تنظيم العلاقات داخل الجماعة ، وبين الجماعات المماثلة فى الجوار المكانى ، داخل النطاق الجغرافى . والأهم : انفصال العمل الإنسانى المتصل بنقل الخبرة - تدريجيا وبشكل نهائى - عن العمل الإنسانى المادى .

الزيادة المطردة في التكافؤ النوعي بين الفائض الغذائي والفائض الوقتي ، مما يسمح بالتحويل التدريجي والتنامي لكل شروطهم الطبيعية إلى موضوعات للتفكير والعمل.

والتغير المطرد في الطرق والأساليب ، والكم المتراكم من الخبرة ، وتكوين المهارات الأساسية ، وعوامل أخرى طرحت تقسيما وتوزيعا للعمل داخل الجماعة ، بين فعلها المركزي المادي [تربية الكائن الحي] ، وفعلها الاجتماعي [تربية الجماعة] أي نقل الخبرة ، وهما فعلان متكاملان ومختلفان في شكل ومظهر أدائهما : أحدهما مادي ، والآخر لا مادي ، رغم أنه في البداية لم يكن هناك فصل ظاهري وعملي بينهما ، حيث توحدت الممارسة ونقل الخبرة في الأفراد أنفسهم، نفس الأشخاص يقومون بالعمل ويتناولون الخبرة فيما بينهم ، ولكن العوامل السابق ذكرها ، مضاف إليها تحويل موضوعات أساسية لمجال الخبرة الإنساني [مثل : الوقت والزمن ، والعمل ذو المهارة ، والأحداث ، .... إلخ] وانعكاس فعل الجماعة المركزي كتربية في تربية الأطفال – سمح بتقسيم أفقي للعمل بين طرفين أساسيين : قوة عمل الجماعة ، وإعادة الإنتاج الاجتماعي للجماعة (الأطفال – البذرة ، كبار السن – ناقلي الخبرة) .

ولم تشهد الجماعة حتى استقرار الحضارة الزراعية تقسيما اجتماعيا بين الرجل والمرأة ، اللذين تميزا بمساواة حقوقية تكاد تكون تامة ، داخل التقسيم الأفقي الاجتماعي المناظر لتقسيم العمل . والحفاظ على فائض الجماعة ، والجماعة ، مهد لأسلوبين مختلفين في التعامل مع الجماعات الأخرى :

١- أسلوب التعاون والتكامل والاندماج المتتالى بين جماعات الجوار المكانى فى النطاق الجغرافى الواحد .
٢- أسلوب التعامل مع الجماعات الرعوية .

الأسلوب الأول : اندرج ضمن عوامل تطور شكل الوجود الإنسانى فى اتجاه التكوين المجتمعى.

والأسلوب الثانى : طرح مهمة الدفاع عن الجماعة ، وجماعات الجوار ، أمام الجماعات الرعوية . وهو عمل قامت به الجماعة وحدها إذا كانت منفردة فى النطاق الجغرافى [وقدرتها على الصمود ظلت مرهونة بقدرة الجماعات الرعوية حولها فى تنمية أساليبها القتالية . ولذلك ، ليس بمستغرب أن تكون هناك بعض الأماكن العامرة والمزدهرة لعدة قرون ، ثم يتم إزالتها وجوديا خلال فترة زمنية تقصر عن بضعه شهور أو سنين] - واشتركت فيه الجماعات الزراعية التى لها نفس النطاق الجغرافى [مصر ، العراق ، الهند ، الصين].

فكانت المهمة الأساسية التى طرحت على تلك الجماعات هى الدفاع . فكان تكوين قوة دفاع من أفراد من مختلف الجماعات مع توفير كافة احتياجاتهم وقت الضرورة - عملا أساسيا ، ويتعدى تكوين الجماعة إلى عمل مشترك وأساسى بين الجماعات كلها ، تعود بعده القوة إلى سابق عملها وإلى جماعاتها بعد زوال الخطر .

فكانت الحاجة إلى الدفاع المشترك ، وليس الأشغال العامة ، هى الدافع المركزى وراء اطراد التكوين المجتمعى الذى أول ما أتضح فى مصر وبعدها العراق ثم الهند والصين - وهى أكثر المناطق ملائمة لذلك - حيث لعبت الشروط الطبيعية دورا فى التعجيل أو التباطؤ فى درجة الزخم داخل الجماعات

المختلفة فى هذا الاتجاه . فالبرد والتجمد فرضا تباطؤا ملحوظا على تحول الجماعات فى أوروبا بما فيها المستقرة على ضفاف الأنهار إلى النمط الزراعى حتى بدايات الألف الميلادية الأولى، مضاف إليها هجرة قبائل الرعاة من أواسط آسيا .

- شروط المنطقة الاستوائية والمدارية فرضت اتجاها نحو إبقاء الزراعة كعامل هامشى للجماعة، واقتربت بها من الرعى الزراعى [أى جمع المنتج] إلى أواسط وأواخر [حسب المكان] الألف الميلادية الأولى .

ومجموعة أنهار الأمريكتين ، فى المناطق الأكثر ملائمة [بعيدا عن المنطقة الشمالية المتجمدة ، والاستوائية والمدارية] دفعت باتجاه النمط الزراعى فى نهاية الألف الثانية ق . م. وتعثر النمط هناك ناتج أساسى للعزلة الإنسانية ، وتأثير بقية الجماعات الرعوية حولها .

وكان العمل الأساسى يتم فى أحواض الأنهار ذات الخصائص المعتدلة والمتنوعة الوجود : مصر ، العراق ، الهند، الصين . وشكل حوض نهر النيل - فى مصبه النهائى - أى مصر ، البوتقة النهائية ، والنموذج المعملى ، للحضارة الزراعية فى مراحلها المختلفة .

بعض أمثلة التباين بين النمطين الزراعى - والرعوى :

١- الدفاع عن الجماعة :-

فى النمط الزراعى : مهمة غير دائمة ، تقوم على مشاركة جزء من قوة عمل الجماعة - أو جماعات الجوار - تعود لمزاولة مهامها الأساسية بعد زوال الخطر والدفاع عن الجماعة .

فـى النمـط الرعـوى : مهمــة دائمــة ، مـن المجمـوع الذكورى ، الدفاع عن الجماعة الاستيلاء على فائض الجماعات الأخرى ، تنمية مفهوم القتـال والحـرب اعتمـادا علــى الشـكل والحركة .

٢- المـــــرأة :

فى النمط الزراعى : نصف قوة عمل الجماعـة ، ونقل الخبرة ، ليست أداة ووسيلة إنتاج ، ولكنها مصدر للوجود ذاته ، تخضـع للتقسيم الأفقـى مثـل الرجـل ، والتمـايز معـه كحقـائق بيولوجية ، لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات ، تجسيد لـ مفاهيم الأمومة والجنس والحياة.

فـى النمـط الرعـوى : ليسـت جـزءا مـن قـوة عمل الجماعـة، ولاذات دور فـى نقـل الخبرة . أداة إنتـاج ، ومتعـة جنسية ، تخضـع لتقسيم اجتماعى رأسى يقوم على أساس التفرقـة بين الرجل (الفحل ، المدافع المحارب ، الخبـير ، رب الأسـرة ، .... إلخ) والمرأة أداة النسل والجنس . وبالتـالى ، تختلـف عـن الرجل فى الحقوق والواجبات ، كثرتها العدديـة غير مرغـوب فيها . مفاهيم : الأمومة ، الجنس ، الحياة - خارج النوع وحالـة تجريدية .

٣- الأطـفـــال :

فـى النمـط الزراعـى : جـزء مـن قـوة العمـل التــى يتـم إعدادهـا ، أسـاس الوجـود المـادى والاجتمـاعى ، التعـامل مـع الأطفال فى أحد أهم معانيه : انعكاس لفعل الجماعة المركـزى ، يقال "تربية" الأبناء - والمربـون ، تعليـم الأطفـال - والمعلمـون

والحكماء ... إلخ ، توجيه اهتمام الطفل نحو أساسيات الجماعة: العمل والتعلم (اكتساب الخبرة) .

فى النمط الرعوى : قوة عمل الجماعة ، أحد وسائل تجديد وجودها ، التعامل مع الأطفال فى أحد معانية : انعكاس لفعل الجماعة المركزى ، يقال "راعى" الأطفال والأسرة ، "رعاية" الأطفال والرعية ، و"تلقى" الأطفال ، و"تلقين" الأطفال فنون القتال ، توجيه عناية الطفل نحو فنون الحرب ، والتفوق العنصرى للرجل على المرأة .

٤- الأخلاق والتعاليم الكبرى والمبادئ :-

فى النمط الزراعى : ستنمو فى اتجاه "تربية الناس" عليها ، ويوجد المربون ، والمعلمون والحكماء ، وهى أهم عملية يقوم عليها البناء الاجتماعى ، جزء من وجودهم الاجتماعى ، مبادئ تتسم بالحياة والقابلية للتغير والنمو ، والتعبير عنها بوسائل مثل : الفن ، الأدبيات ، السلوك ، ...إلخ

فى النمط الرعوى : تتحول تدريجيا لانعكاس سلبى لفعلهم "الرعوى" ووجودهم "غير المنتج والفعال" ؛ فتصبح المبادئ سلسلة موروثات تلقن من السلف للخلف ، ثابتة ، مصدرها خارج الوجود المادى والاجتماعى للجماعة ، هبة أو منحة خارجية ، مثل المرعى والغذاء ، والتعليم الأساسى يرتكز على فنون القتال والتعبير عنها بـ المنقول الشفوى ، والموروث اللغوى ، ولكنه سيتميز دائما بكونه المرادف الخارجى ، للمرادف المادى الخارجى من مرعى وكلأ.

٥- الشروط الطبيعية :-

فـى النمـط الزراعـى : موضـوع للفعـل والفكـر ، امتـداد نوعى لهم ، مظاهر متنوعة للحياة ... إلخ .

فـى النمـط الرعــوى : لا تعتـبر موضوعـا للفعـل ولا امتدادا نوعيا لهم ، ولا جزءا منهم ، فتحولت إلـى موضـوع غريب عن الفكـر الإنسـانى ، ومظـاهر الطبيعـة ومهنـة الحـرب عكست علاقة قهر وخضوع بينهما .

٦- المأوى (أو المسكن) :-

فى النمط الزراعى : اتجه نحو الاستقرار – الرسـوخ – استخدام الحجر والمواد الأخرى – التعبير الفنى .

فى النمط الرعوى : اتجه نحو سـهولة البنـاء والهدم – سهولة النقل ، استخدام ناتج حيوان المرعى .

الحضارة الزراعية
(أو : الحضارة المصرية)

استهلال :-

الحديث عن الحضارة المصرية هو حديث كلى عن الحضارة الزراعية ، والكلام عن الحضارة الزراعية لابد أن تكون بدايته - على الأقل - عن الحضارة المصرية ، التى هى الدرس الأول فى كل كتب التاريخ فى كافة أنحاء العالم وبكل لغاته ، وهى مرحلة داخل مسيرة الوجود الإنسانى ، فى تاريخه الكلى النوعى ، فلا وجه للغرابة والعجب فى أن يبدأ بها ومنها التاريخ الإنسانى الحديث .

وقد عجلت فى خطاها من بداية الألف السابع ق . م [التى سنعتبرها نقطة الإسناد المرجعية فى مفهوم ما قبل وما بعد التاريخ] . ورغم انتشار النمط الزراعى فى مناطق عديدة من أنحاء العالم ، إلا أن مصر الإنسان والمكان ، كانت الأكثر بلورة وتمثيلا وتطويرا لتلك الحضارة والسباقة إليها ، وكانت التكوين المجتمعى الوحيد خلال كذا ألف سنة ، حتى تمكنت المناطق الأخرى من تطوير شكل وجودها الاجتماعى فى نفس

الاتجاه . وتلك الحضارة المستمرة والمتصلة منذ أكثر من ٨ آلاف عام مرت بمراحل نمو مختلفة . وتجاوز الحضارة الزراعية تطور إنسانى لا يتم قبل أن تصل إلى نهاية حدية ، بمعنى وصول فعلها المركزى إلى أقصى حد ممكن ويتمثلها النوع فى مجموعة (بأشكال ودرجات مختلفة) والنهاية الحدية للحضارة الزراعية هى بمعنى آخر: نهاية حدية للحضارة المصرية فى أحد أشكالها ، حيث يصبح التغير الكيفى هو طلبها وعملها الأساسى لتظل داخل مسيرة النوع .

والسرد القصصى والتحديد الدقيق لتفاصيل الآثار ، وترتيب الحكام ... إلخ تلك الموضوعات وغيرها ، هى عمل بحثى بكل أشكاله وتخصصاته ودرجاته ، لكن الرؤية المتكاملة للحضارة المصرية ، كمرحلة فى التطور الإنسانى ، وكتعبير عن الحضارة الزراعية ، ومحاولة فهم حقائقها ومحورها المركزى هو المطروح هنا ، ويختلف عن السائد فى مفاهيمنا لها ، ولمراحلها ، وتوزيعها التاريخى داخل عملية التطور كقانون عام . ويمكن إجمال وجهات النظر إلى الحضارة المصرية فى نقاط معينة مثل :

١- فصلها عن واقعها ومسيرة الإنسان فى تطوره .

٢- التوزيع التاريخى على أساس الوصول بنظام اللغة المصرى إلى النظام المكتوب .

٣- فصلها عن مفهوم التطور الحضارى - أساسا - مع كونها حضارة زراعية .

٤- وجهات النظر الدينية التى نظرت إلى مصر وحضارتها من خلال :

أ- الحضارة المصرية قبل دخول مبشرى الديانات السماوية هى وثنية يجب تدميرها - ويصبح لمفهوم الحضارة المصرى مفهوم دينى صرف ، من لحظة نجاح التبشير الدينى بها .

ب- تحويل المرجعية المصرية إلى مرجعية حضارية للوافدين عليها ، مهما بلغت درجة التدنى والحدية فى أنماطهم الحضارية.

ويلخص الموقف فى أن يصبح فهم مصر وحضارتها مرتبط بإلغاء هذا الوجود المصرى .

٥- وجهات النظر الأوروبية بداية من وجهة النظر الماركسية المرتكزة على قاعدة الأشغال العامة والصراع الطبقى ، نهاية بـ توينبى فى نظرته إلى "الحضارة المصرية المتحجرة" والتى بدأت سومرية .

٦- العمل الأكاديمى والتخصصى والتاريخى .

٧- العجائبية واللغزية والسطحية .

والتوزيع التاريخى لمصر هو : ما قبل التاريخ - ما قبل الأسرات - الدولة القديمة- الانهيار الأول - الدولة الوسطى - الانهيار الثانى - الدولة الحديثة - الغزو الآشورى والفارسى والفترات الهامشية مع الأسر الليبية والنوبية المتأخرة - الفترة البطلمية - العصر الرومانى - الفتح العربى الإسلامى - فترة الخلافة الإسلامية - المماليك - العصر الحديث أو القرنين ١٩، ٢٠ .

وهو توزيع ارتبط بـ : تسلسل الأسر الحاكمة ، تطور بناء القبور ، الرموز العقائدية ، استخدام النحاس والحديد ، الغزو الخارجى ، ... إلخ والخلاف ليس حول المعرفة الدقيقة

والمفصلة للحضارة المصرية ، لكن حول كليتها وأساسها ، وموقعها داخل النوع الإنساني .

فمنذ بداية الألف الثاني عشر ق . م إلى الألف السابع ق.م كانت الجماعات القاطنة بوادي النيل (مصر) قد أنهت تحولها وانتقالها من حضارة الفائض الغذائي إلى النمط الزراعي . [والتفاصيل المتعلقة بأصلية تلك الجماعات في المكان أو وفودها إليه ، وصاحب المؤثرات الأساسية في النمط الزراعي وهل هو آسيوي أم إفريقي قبل الألف الـ١٢ ق . م – ليس لها معنى أو مدلول ؛ فالمهم أنه منذ ذلك الزمن استقرت الجماعات نهائيا في وادي النيل بأشكالها الجغرافية – التاريخية ، وأخذت في تعبيد الطريق تدريجيا وتحويل النمط المتكون إلى حضارة للنوع الإنساني] . وعلى ذلك فإن التوزيع التاريخي للحضارة المصرية نقترح أن يكون : –

١- من الألف الثاني عشر ق . م إلى الألف السابع ق.م – استقرار النمط الزراعي .
٢- من الألف السابع ق . م إلى الألف الرابع ق . م – تحول النمط الزراعي إلى حضارة كلية – اتجاه التطور .
٣- من الأف الرابع ق . م – استقرار الحضارة الزراعية .
٤- من الألف الثاني ق . م – انتشار الحضارة الزراعية على مستوى النوع .
٥- من الميلاد : القرن الرابع عشر والخامس عشر فترة النهاية الحدية للحضارة الزراعية – تداخلا مع بداية انتشار الاتجاه النامي للنمط الرعوي ، بفعله المركزي "الحركة".

ولذلك ، فالحضارة المصرية هى تحديدا ومنذ الألف الثامن ق.م : كلا متصل مستمر .

من الألف السابع ق . م إلى منتصف الألف الرابع ق . م :-

هى الفترة الانتقالية من النمط الحضارى الزراعى الذى عبر عن كيفية وجود الجماعة ضمن طبيعية محددة شكلت القاعدة المادية التى يقوم عليها وبها عملية إنتاج وإعادة للإنتاج المادى للجماعة ، والتى عكست شكل ودرجة وجودهم الاجتماعى وعلاقاته . كما تحول كل ذلك إلى موضوعات للتفكير ، وأعيد طرحها من جديد على الجماعة كخبرة مكتسبة ، منقولة ، ومتطورة ، مما ساهم فى إحداث النمو المطلوب ، كما وضح العمل الإنسانى "كوظيفة ".

وقد كانت فترة كافية للجماعات الزراعية القاطنة فى النطاق الجغرافى المصرى لتتصهر فى النمط وتتفاعل فى مسيرة انتقال تحولت به إلى الحضارة الزراعية .

ولعبت الشروط الطبيعية المناسبة دورا أساسيا فى تنمية التلائم الوظيفى الإنسانى ، والتى تميزت بـ :

١- السيولة والسهولة التى ميزت التضاريس المصرية ، وعدم وجود أى مانع طبيعى ، أو شكل حدى لها .
٢- رغم المناخ المتنامى الجفاف ، إلا أنه مناخ وسطى ، متنوع ، لا يتميز بحالة حدية .
٣- وحدة وكلية الشروط الطبيعية على مستوى النطاق الجغرافى كموضوع للفعل الإنسانى [المياه والأرض والشمس].

٤- تنوع الكائنات الحية [كموضوع للفعل الإنسانى] داخل النطاق الجغرافى .

٥- خصوصية علاقة الجوار فى المكان بين الجماعات ، والتى جعلت منه جوارا كليا ، متفاعلا ، متداخلا ، تتناقص فيه إلى الحد الأدنى استقلالية أى من الجماعات ، بل إنه كان عامل دفع فى اتجاه تحول "الفعل المشترك" للجماعات إلى جماعات "الفعل نفسه ".

- منذ أواخر الألف الخامس ق . م ، كانت الجماعات قد توحدت عمليا فى كل شروط وخصائص وطرق وجودها المادية والاجتماعية والفكرية ، وظل المخاض مستمرا طيلة بضعة قرون ليجسد فى النهاية الاتجاه الإيجابى المتنامى والحادث فى شكل الوجود الاجتماعى الإنسانى .

أى التكوين المجتمعى بكل خصائصه وعلاقاته ، والمختلف نوعيا وكميا عن أى "جماعة" إنسانية ، حيث عكس من جانب آخر عملية التطور الإنسانى بطريقة مختلفة كيفيا عما سبق من خلال الوجود الاجتماعى والفكرى للإنسان .

وبقدر ما عبرت الجماعة [كشكل لوجود الإنسان] اجتماعا عن النمط الزراعى ، فإن المجتمع وحده هو المعبر عن "الحضارة" الزراعية . ونجد أن الانتقال من النمط الزراعى إلى الحضارة الزراعية لم يتضح فى العراق إلا فى أواخر الألف الثانى ق . م ، وبعد بضعة قرون أخرى تم الانتقال فى الحضارات الصينية والهندية ، بينما انتظرت أوروبا إلى ما قبل الميلاد لكى تتأكد فيها ، فى حين حافظت جماعات النمط الزراعى فى الأمريكتين على حالها حتى استقرار الهجرات الأوروبية بها .

ولذلك ، لا وجه للعجب أو التلغز فى فهم سير الحضاة المصرية ، التى لم تهبط من الفضاء ، كما لم تأت بها جماعة إنسانية جاهزة ، متجهزة ، بنت الحضارة المصرية بناء على خبرة سابقة فى مكان أخر [وإلا كنا تعرفنا على آثارها على الأقل] وبعد أداء مهمتها التى استمرت آلاف السنين ذهبت إلى حال سبيلها [ولا نجد من يخبرنا إلى أين ذهبت ؟ أو كيف ذهبت؟ كما لا نجد من يخبرنا عن سكان مصر الجدد هؤلاء ، من أين ولماذا وكيف أتوا ؟ وكيف استمرت مصريا وحضاريا].

كما أن تلك الحضارة الأشد أصالة فى تاريخ النوع الإنسانى ، لم تكن رجسا من عمل الشيطان ، ولا يمكن بأى حال ولا لأى أحد الحق فى إلغائها من الوجود ، مقابل مرجعية رعوية ، لم تتواجد ولم يعرف عنها شىء إلا قبل الميلاد بعدد بسيط من القرون ، وماعدا ذلك سردا لقصص الترحال والتنقل ، وقصص القتل والحرب داخل تلك المناطق .

٤ آلاف عام أو يزيد ، كانت مخاضا إنسانيا عسيرا وضروريا فى تطور الإنسان ، خاضها سكان مصر ، لتكوين الحضارة الزراعية ، وتنمية الوجود الإنسانى من خلال التكوين المجتمعى ، وبعدها نندهش ، كما لو كانوا غزاة من الفضاء أو قادمين من الجنة التوراتية التى ظهرت إلى حيز الكتابة قبل وبعد الميلاد بعشرات السنين .

وهكذا ، لا يكاد الربع الأخير من الألف الرابع ق . م يبدأ إلا وكان فى مصر تكوين مجتمعى إنسانى قائم على أسس منها : -

١- عملية إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع تقوم على العمل الزراعى [أى تربية الكائن الحى] .

٢- توزيع وتخصيص للعمل - بين العمل الزراعى ، العمل المكمل له ، العمل الفكرى (نقل الخبرة) .
٣- استخدام الحيوان كأداة ، إلى جانب أنه موضوع للعمل .
٤- الوجود الاجتماعى لا يقوم على الجماعة والتنسيب الأبوى ، ولكن على المجتمع (كوحدة كلية) وعلى الأسرة [الزوج - الزوجة - الأولاد] ، والتفرقة الجنسية بين الرجل والمرأة قائمة على الحقائق البيولوجية وليس على المهمة القتالية أو الجنسية للرجل [كما فى الرعاة] - ولذلك بالتحديد ، فرغم التفريق الجنسى بينهما ، إلا أنها اجتماعيا كانت لصالح المرأة أكثر منها لصالح الرجل ، فاعتمد المجتمع المصرى [فى البداية ، وفى أوقات كثيرة] والأنماط الزراعية عموما المرجعية الأمومية - مقابل المرجعية الأبوية للرعاة .
٥- اتضح الانقسام الاجتماعى ، كعلاقة أساسية فى الوجود الاجتماعى ، وكناتج رئيسى ومركزى لتوزيع وتخصيص العمل ، ولكن تميز أساسا بكونه انقساما أفقيا وليس رأسيا للمجتمع.
٦- أن فئة كبار السن ، ناقلى الخبرة ، ومعلمى ومربى الأجيال ، كانت البداية الأساسية لتحويلهم ولظهور الفئة المنظمة والمهيمنة على شئون المجتمع - أى الفئة الحاكمة - التى كانت مهمتها الأساسية هى : الدفاع عن المجتمع - والتربية (نقل الخبرة) - وتدريجيا استحوذت أيضا على إدارة المجتمع .

فالنقطة المركزية التى ساهمت ودفعت باتجاه التكوين المجتمعى فى مصر القديمة - كانت

أولا: كليــة ووحــدة الفعــل الإنســانى المــادى لتلــك الجماعات.

ثانيـا : الدفـاع عن الجماعـات ومكوناتهـا أمـام هجمـات الجماعات الرعوية .

فبعكس ما هو سائد ، لم تتمتع مصر بأية حماية طبيعية، كمـا أن الدفـاع كـان هـو عمـل الفئـة الحاكمـة ، الأساسـى والمركزى، وليس الأشغال العامة ، التى كـانت نتيجـة للأولـى ، وطريقة فى تنظيم شئون المجتمع . والتعليم – أى نقل الخبرة – تحول نهائيا إلى عمل إنسانى منفصل عن العمل المادى له ، كما كان هو والفن القواعد الأساسية التـى أظهـرت الجـانب الوظيفـى فى الإنسان ، وطبيعته الفكرية ، وانتقاله الكـامل من المحسـوس إلى المجرد ، ومن الخاص إلى العام .

ملاحظات أساسية :-

حيث إن عملية إنتـاج وإعـادة إنتـاج التكويـن المجتمعـى النامى من رحم الجماعات المختلفة – قـامت علـى فعلـه المـادى المركـزى "تربيـة الكـائن الحـى" أو العمـل بعنـاصره المختلفـة ، لذفقد وجب علينـا إلقـاء نظـرة عـن قـرب علـى تلـك العنـاصر ؛ للتعرف على الحقائق المادية التى شكلت الأسس والدعـائم التـى قام عليها الوجود المادى والاجتماعى لهذا التكوين ، وانعكاسـتها المختلفة فى تصورتهم الفكرية ، وعلاقاتهم الاجتماعية .

١– موضوع العمل : الكائن الحى :-

نبات : ثبات وسكون مكانى ، طوران للنمو المـادى : أحدهمـا : باطنى (خفى) ، والآخر : ظاهرى .

حيوان : التحرر المكانى ، طوران للنمو المادى - أحدهما : باطنى (خفى) ، والآخر : ظاهرى . تماثلت أدوار النمو المادى الإنسانى مع بعض الحيوانات ،

مع ملاحظة استقلالية الطور الأول عن الفعل الإنسانى ، الذى يتقلص إلى حده الأدنى فى عمليات تحضير وتمهيد ، داخل الشروط نفسها .

٢- وسائل وأدوات العمل :

بحار : مالح ، دائم ، لا نهائى ، مضطرب .

الماء : نهر : عذب ، متجدد ، محدود ، هادئ .

الصحراء : شكل - وظيفة حدية ، مصدر خطى .

الأرض : الوادى : شكل - وظيفة وسطى ، مصدر متجدد للوجود .

الشمس : حالة ليلية : سكونية .

الشمس : حالة نهارية : نشاط .

أدوات العمل : ثابتة : مزيج من الشروط الطبيعية وعمل الإنسان [القنوات] .

منقولة : حية ، وأدوات جامدة .

٣- قوة عمل الجماعة :

قوة عمل فكرية (لا مادية) لها مظهران أحدهما : باطنى (خفى) - والآخر: ظاهرى [أو الخبرة] .

: قوة عمل مادية - المرتبطة بالإنتاج المادى مباشرة ، لها تكوين ثلاثى [الزوج- الزوجة - الأولاد] أو الأسرة .

ويلاحظ أن هناك انقساما أفقيا عريضا جمع بين وسائل وأدوات وقوة العمل بين :-

بحر – صحراء – ليل – عمل فكرى – نهر – واد – نهار – عمل مادى .

تتوافق مع انقسام آخر أفقى للوجود المادى وهو : الوجود الباطنى (الخفى) ، والوجود الظاهرى ، واللذان يشكلان معا الوجود المادى للحياة .

كما يلاحظ على العناصر السابقة الخصائص التالية : التوحد – الثنائية ، التكامل – التجزؤ ، الوجود المادى الباطنى – الظاهرى ، وكلها خصائص متجددة ، مستمرة ، موضوع فعلها المركزى هو المادة الحية أو الحياة . وهناك تراتبية طبيعية لوسائل وأدوات العمل فى : الأدنى : الأرض ، الأعلى : الشمس ، الوسط : الماء [فى تكوينه الفنى الشريان الرئيسى والشرايين والأوعية (القنوات)] .

أى أن الأرض كانت بمثابة الامتداد والمصدر المادى للحياة ، والشمس هى الامتداد اللا مادى – النفس واهبة الحياة ، والماء وسيط الطرفين ، لإعطاء المادة حياتها ، والحياة مادتها .

٤– عكس ذلك مفاهيم أساسية عن الوجود فى التطورات الفكرية معتمدة على :–

أ– "التربية" هى جوهر وأساس العلاقات بين الأشياء ، وداخل النوع الإنسانى .

ب– كافة الأشياء والموضوعات هى مواد حية وكائنات حية.

جـ– هناك نظام مستمر ومتجدد لكافة الموضوعات ، وهو نظام كلى ، ومطلق ، له وجود باطنى (خفى) ووجود ظاهرى .

د– كافة أجزاء ومكونات نظام الوجود متكاملة ومتنامية .

٥– اتضحت المفاهيم السابقة فى مظاهر مختلفة مثل :

أ- انقسام وتوزيع العمل أفقيا .
ب- الانقسام الاجتماعي المناظر أفقيا .
جـ- التصور والتعبير الفكرى عن الوجود المادى انقسم أفقيا بين :-

تصور فكرى للفئات الحاكمة استند على العناصر العليا (الشمس) والوجود الخفى.

تصور فكرى لقوة العمل استند على العناصر الدنيا (الأرض) والوجود الظاهرى أو الكائن الحى .

والتوحيد والدمج المجتمعى المتنامى انعكس فى تلك الأفكار "الشمسية" للفئة الحاكمة ، والأفكار "الحياتية" أو المادية" لقوة العمل . وبالتالى ، لم تكن التكوينات الفكرية للعقائد المصرية القديمة تعبيرا عن عملية توحيد جماعاتى ، بل كانت تعبيرا عن التكوين المجتمعى وتوزيع وانقسام العمل .

وبانفصال العمل الفكرى (ونقل الخبرة) نهائيا عن العمل المادى ، وظهور فئة استطاعت تجسيد وتحقيق الاتجاه الإيجابى للتطور - بالعمل فى اتجاه التكوين المجتمعى - انفصلت تلك التكوينات العقائدية عن أصولها المادية حتى التغير الأوزيرى لها .

٦- كما يلاحظ وبشدة ، رغم الأهمية القصوى لنهر - الماء - النيل للحضارة الزراعية ولمصر فى جميع النواحى وفى كل المجالات ، إلا أنه لم يتبوأ إلا مركزا وسطيا فى التصورات العقائدية المصرية ، رغم اتصافه بالصفات والخصائص التى تؤهله لأن يكون هو محور الفكر الرئيسى .

ولكن تخلى النيل عن هذا الدور الرئيسى للموضوعات الأخرى [الشمس ، الكائن الحى] كان تعبيرا مباشرا عن واقع

الانقسام الأفقي في العمل وفي الوجود الاجتماعي - أي عند طرفي عملية إنتاج وإعادة إنتاج تلك الحضارة .

٧- قوة العمل الإنساني المادي المركزية في النمط الزراعي عامة ، والحضارة الزراعية خاصة ، وفي مصر بالذات ، كان عنصرها الأساسي هو الأسرة [الزوج - الزوجة - الأولاد] - هذا التكوين الثلاثي لها لعب دورا مهما من التركيبة العقائدية المصرية - خاصة داخل عقائد قوة العمل في المناطق المختلفة - مقابل التوحد ، والثنائية ، والثمانية ذات التركيبة الباطنية للفئات الحاكمة . فكانت التكوينات العقائدية ذات تركيبة ثلاثية أسرية : زوج - زوجة - أولاد .

٨- في التكوين المادي والفكري للحضارة الزراعية المصرية ، للمرأة نصيب واضح ودور بارز مهم ؛ فهي :-

أ- نصف قوة عمل الجماعة المادية في مجال فعله المادي المركزي .

ب- المسئولة عن تسيير الشئون اليومية للأسرة .

جـ- حامل الوجود الإنساني ، والمصدر الأساسي له .

د- الحاضن الأول والمربي الأول وناقل الخبرة الأول للوجود الإنساني .

هـ- تحمل داخلها نهر الحياة الدائم والمتجدد بكل خصائصه الباطنية والظاهرية (الدورة الدموية) والعديد من التفاصيل الأخرى التي يصعب حصرها هنا .

كانت تلك المكانة الخاصة والمتميزة في الوجود المادي والاجتماعي والفكري للحضارة المصرية .

وارتكز التكوين الفكري المصري على :

أ- التركيبة الثلاثية لعنصر قوة العمل المصرية .

ب- وضعية ومكانة المرأة المتميزة .
ولذلك ، لم يكن لهذا المجتمع فى كل مراحله أن يتقبل من العقائد الإنسانية ، أو السماوية ، إلا ما اتضحت فيه النقطتان السابقتان .
وبالتحديد : لأجل ذلك لم تتهود مصر ، ولم تستطع أن تقبل الفكر اليهودى ، بل كانت لافظة له ، بالإضافة الأساسية لكون الفكر اليهودى لم يكن تعبيرا لاعن فعل إنسانى ، ولا عن حضارة زراعية ، ولكن نمط حضارى رعوى أبوى متخلف ومتدن عن الحضارة الزراعية . بينما نجد - لهذين السببين ولأساب أخرى - تقبل المجتمع المصرى للرسالات السماوية المسيحية والإسلامية ، كما نجد أن حكم مصر كان وراثيا للمرأة، وفرعون مصر وحاكمها كان عليه أولا الزواج من وريثة العرش .
٩- ولكون موضوع الفعل : كائنا حيا ، ولكون قوة العمل : كائنا حيا ، فقد كانت تصوراتهم عن الوجود بعناصره المختلفة أنها كائنات حية ، بكل الخصائص المتعارف عليها للكائن الحى ، بما فيها النفع والضرر ، والحياة الباطنية (الخفية) والظاهرية . والتكامل بين الموضوع والفاعل أعطى دورا حياتيا متكاملا للموضوعات الأخرى .
ولهذا السبب تحديدا : فإن مفهوم الخير كان مرادفا لـ"النظام والعمل" ، ومفهوم الشر كان مرادفا لـ"الفوضى" ، وهى مفاهيم ارتبطت بفعل الكائن الحى ذاته ، ولم تكن مصادرها غريبة أو خارجة عنه ، كما لم تكن مثار نزاع بين قوة أخرى علوية أو خفية ، بل كان الخير والشر ، يعتمدان على السلوك المادى والاجتماعى .

١٠- أدوات العمل : منقولة : من عمل الإنسان وفعله (فأس / منجل .. إلخ) - أو أداة معاونة (حيوان جر .. إلخ) وهى تتميز بـ الوحدة ، الفردية ، كلية الفعل الإنسانى على المادة ، الصلة المادية المباشرة بين الأداة والإنسان ، ذات ملكية أسرية (وليست فردية أو شخصية) معظمها قابل للعمل داخل نطاق الأسرة نفسها ، أو داخل نطاق الجماعة ، مستقلة عن عناصر العمل الأخرى ، مقدار صلاحياتها ليس له تأثير مباشر على العمل ، ولكن على العامل وبشكل محدود .

غير منقولة : أساسا قناة (الرى والصرف) المياه ، الفعل الإنسانى الأساسى والوحيد هو التشكيل وإعادة التشكيل ، جزء مادى من المكان ، أداة جماعية ، لا تتميز بكونها فعلا كليا للإنسان ، غير قابلة للتبعية الشخصية ، متصلة اتصالا ماديا ببقية وسائل العمل (الأرض - الماء) ، صلاحيتها للعمل تؤثر تأثيرا مباشرا على العمل والأسرة والجماعة .

١١- مصدر الماء هو النهر ، الوادى - الأرض ، شريط طولى على ضفتيه - حتى فى مناطق الدلتا قديما - حيث كانت تكثر فروع النيل ، والفيضان عمل طبيعى وليس إنسانيا ، والترع والمصارف [أو المشاريع العامة] لم تكن عملا فى العمق المكانى العرضى للوادى ، بقدر ما كانت عملا طوليا على **امتداد النهر ، وطبيعة الشروط الطبيعية المصرية والتضاريس** لم تسمح لأى جماعة كانت ، بمنع الفيضان عن الآخرين ، ولا منع الماء عنهم [فى طول النهر] - ولم تكن هناك حاجة فعلية لتنظيم مركزى للرى والصرف ، ولكن الحاجة لتنظيم مركزى نشأت عن : -

١- الدفاع عن المجتمع الزراعى ضد الجماعات الرعوية .

٢- تنظيم وتوزيع الفائض الغذائى .
٣- تنظيم وتوزيع العمل بين الفئات المختلفة .
٤- تنظيم عملية نقل الخبرة بالطرق والأساليب الإنسانية المتطورة .

ولذلك ، ليست الأشغال العامة وغياب الملكية الخاصة هى مفتاح الشرق ، بل الدفاع الخارجى أولا ، والتنامى الهائل لفائضه الغذائى ، والتطور فى وسائل وطرق نقل الخبرة ، هى الأسس التى قامت عليها المركزية المصرية - واستنادا على كلية ووحدة الفعل المادى الأساسى ، ووحدة وكلية الشروط الطبيعية والتضاريس المصرية - تلك التضاريس التى لم تشكل فىأى لحظة أو وقت عامل حماية للمجتمع المصرى ، بل كان مجتمعا مفتوحا وممهدا طبيعيا من جميع الاتجاهات لكافة أنواع الغزو .

وما يطلق عليه أشغال عامة (ترع ومصارف وخلافه) كان عملا متناميا داخل المجتمع بعد تكوينه - ناتجا له وليس قبله - بعد أن أصبح العمل وتوزيعه يختلف عنه فى أية جماعة؛ فبعدها - فقط - تحولت الأشغال العامة من عمل الجماعة وموضوعها إلى عمل وموضوع المجتمع - الذى كان موضوعه الأساسى هو تقدير وضبط وتوزيع المنتج .

١٢- وبناء على ما سبق ذكره - وكثير من التفاصيل التى تزخر بها كتب التاريخ والآثار والعلوم الإنسانية ، التى اتخذت من الحضارة المصرية موضوعا لها - فإن :

١- فهم معرفة عناصر عملية إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع هى مفتاحه .

٢- العقائد المصرية لم تكن - حتى بالمفهوم الحديث - وثنية ؛ حيث إنها اصطلاح ومفهوم لا معنى ولا وجود له ضمن تلك الحضارة - وإنما هى إسقاطنا عليها .

٣- الخلط بين التعبير الفنى - وقدراته وممارساته - والتصور العقائدى الفكرى المصرى يسبب إحباطا شديدا .

٤- مشكلة المجتمع المصرى لم ترتبط بوثنيته أو عدمها ولكن بـ :-

أ- مستوى التطور الوظيفى الإنسانى .

ب- تأخر تمثل النوع الإنسانى للحضارة الزراعية حتى قرون بسيطة خلت .

جـ- الهجوم الدائم المستمر من الجماعة الرعوية عليها .

د- التقوقع الفكرى والعقائدى التى لجأت إليه فى النهاية الفئة الحاكمة المصرية أمام الغزو الدائم والمستمر من جماعات الرعاة .

وما تم بعد ذلك فى البناء الفكرى المصرى ومعتقداته ، كان الوصول به إلى أكمل شكل تعبيرا عن تكوينه المجتمعى وعمله الزراعى . وبوصول الحضارة الزراعية قمتها فى نهاية الألف الثانية ق.م ، فإن الأفكار والعقائد وصلت إلى نهاية حدية على يد إخناتون بعدها بعشرات السنين .

استقرار الحضارة الزراعية :-

الفترة من الربع الأخير من الألف الرابع ق . م وبدايات الألف الثانى ق . م ، أى ما يزيد عن ٢٠٠٠ عام كانت فترة وصول الحضارة الزراعية فى مسيرة التطور الإنسانى إلى قمتها ، ومن ثم نهايتها الحدية ، بعد أن استقرت واستقر معها

شكل الوجود الإنساني المجتمعي في وجوده المادي ، بالوصول إلى نهاية حدية للفعل الإنساني في استخدامه للنهر والوادي والحجر ، كما وصل بالعمل الزراعي اليدوي إلى قمته مع تحقيق أعلى معدل للفائض الغذائي آنذاك .

وفي وجوده الاجتماعي ، تأكد مفهوم المجتمع ، وطورت العلاقات داخله على أسس مثل: الانقسام الاجتماعي للعمل ، وتخصصه ، واعتبار الأسرة هي حجر البناء الاجتماعي ، وقوة العمل الأساسية ، واستقرت خلاله وبه الأعراف ، والعادات ، والنظم .

وفي وجوده الفكري ، كانت "التربية" و"التركيبية الوسطية" هي الأساس والموضوع ، واتخذت الموضوعات الفكرية شكلها النهائي ، كتصورات دينية وصلت إلى نهاية حدية ، في انتظار التجريد النهائي لها ، كما تم وضع نظام منهجي للمعرفة الإنسانية [فلك ، حساب ، طب ، ...إلخ] ، وكان الفصل النهائي بين العمل المادي والفكري هو أكبر إنجازاتها في هذا المضمار . وقد تكون النقطة الغامضة ، والمحيرة في الأداء الفكري هنا ، هي ما تعلق " بالمنطق والفلسفة" التي عكست الخصائص المادية للعملية الزراعية ، فجعلت للقضايا المختلفة منطقا تركيبيا ، مقابل المنطق "التحليلي" ، الغير ممكن طرحه من قبل الحضارة الزراعية ، ليس لضعف بها أو خلل فيها ، ولكنه مستوى معين وصلت إليه الحضارة الزراعية بخصائص الفعل الإنساني ورؤيته للأشياء .

كما استقرت ونمت أهم وسيلة للعمل الفكري بمعناه التجريدي والمطلق ، باستقرار النظام اللغوي ، خاصة في صورته المكتوبة ، كما وصل الفن إلى قمته ونهايته الحدية

بتعبيره عن "الشكل" وعن الوجود المادى والاجتماعى المباشر ، وكان عصر الأهرامات هو ذروتها ، بعد أن طرحت فى بدايته مسألة تعاظم الفائض الغذائى ، ووصول التكوين الاجتماعى إلى قمته من حيث التنظيم الاجتماعي ، وأدواته ووسائله وعلاقاته ، وتوزعه الفئوى . وعصر الأهرامات كأحد الحلول التى طرحت، كانت بتحول ذلك إلى إنجاز مادى . وبانتهائه ، عادت المسألة إلى حيز الوجود مرة أخرى ، عادت كلحظة تاريخية كان يجب أن تتطور فيها الحضارة الزراعية ، والحضارة المصرية على وجه الخصوص ، بعد أن وصلت إلى القمة ، لكنها اصطدمت عمليا وماديا وفكريا واجتماعيا بـ :-

١- درجة تطور المعرفة والوظيفة الإنسانية .

٢- المهارات الإنسانية المحدودة فى استخدام : النهر - الوادى - الحجر - الكائن الحى.

٣- البحر والصحراء والشمس ، كانت فقط [وإلى الآن] موضوعا للتفكير وليست موضوعا للفعل .

٤- أحادية اتجاه التعامل والتفاعل مع بقية الجماعات وحضارات المنطقة مثل :-

أ- مبادلة جزء من الفائض مقابل مواد غير موجودة أو متوفرة ضمن الشروط الطبيعية كالخشب والتوابل .

ب- تمصير التسلل الفردى والجماعاتى الرعوى الوافد لمصر .

جـ- الدفاع الدائم والمستمر أمام الجماعات الرعوية على حدود الوادى ، والتى كانت تنمى وسائل الحركة ، والمادة المعدنية ، ووسائل الحرب ، وكمها العددى .

د- المحاولات الأولى "لتربية" المحيط الرعوى بها ، على أسس وقيم الحضارة المصرية الزراعية .

هـ- التنافس الذى بدأ [ولم ينته] بين قطبى محور العالم القديم وهما : العراق ، ومصر .

و- تأثر الفئات الحاكمة ببعض من التصورات العقائدية للجماعات الرعوية الوافدة التى عبرت مباشرة عن ممارسات السلطة والصراع عليها بين إدارات المجتمع الثلاث : الدفاع [الجيش] - الإدارة - الفكر [الكهنوت الدينى والعلمى] .

ولعل بعض الأمثلة يمكن أن توضح لنا الفروق الضخمة والهائلة بين الحضارة الزراعية والمجتمع المصرى من جانب ، وأنماط الجماعات الرعوية المحيطة بها من جانب آخر :

١- لم يعرف المجتمع المصرى خصوصا ، والحضارة الزراعية عموما ، أى نوع من التضحية البشرية - خاصة الأطفال .

٢- لم يعرف المجتمع المصرى ولا أية حضارة زراعية مهما كان شكلها وأد وقتل البنات .

٣- لم تعرف المجتمعات الزراعية ، والمجتمع المصرى ، الصوم كامتناع عن الأكل والشرب التام- ربما عرفت الامتناع عن نوع معين من الأكل ، أو الصوم عن نوع معين فى المراتب الكهنوتية العليا ، أو لبعض الوقت المرتبط بواقع نشاطها المادى .

٤- استقرار تقويم الحضارة المصرية منذ الألف الخامس ق.م على التقويم الشمسى ، فمن غير الممكن ماديا وعمليا، أن تقوم حضارة مؤسسة على وقائع مادية وفعل

مادى منتظم ودورى على امتداد آلاف السنين بالاعتماد على توقيت لا يرتبط بأى شكل أو معنى بنشاطها وعملها وكينونتها .

٥- وسائل أخرى مثل : السكن [الحجرى والطوبى - الثابت والدائم] والذى عرفته ببضع آلاف السنين قبل الجماعات الرعوية ، وطريقة فرشه ، وطرق المعيشة الإنسانية داخله ، ومسألة النظافة والطهارة الشخصية [المصرى كان يستحم ٤ مرات يوميا : ٢ بالنهار ، و٢ بالليل ؛ للنظافة والتعبد ، بل هو الأساس والمصدر لأعياد الربيع (شم النسيم) ليومنا هذا .

٦- التعداد المصرى .

٧- وضعية المرأة ، الأسرة ، مفهوم العمل ، التربية ، الأطفال ، النظام الاجتماعى .

٨- الوصول بأدوات التنظيم الاجتماعى إلى نهاية حدية لم تعرفها معظم المجتمعات إلا حديثا - وهى الدولة .

نكتفى فقط بهذا القدر ، ومن رغب فى الزيادة والتوسع فعليه بالمراجع التاريخية "الأكاديمية" و "المتخصصة ".

وإعادة توزيع الفائض وطرق استخدامه لإحداث التغير فى الاتجاه الإيجابى للتطور - لم يكن ممكنا ، وعمليا ، **واكتشف المجتمع المصرى ذلك ، خلال ثورته الأولى والأخيرة** فى تاريخه الألفى - ربما كانت الثورة الإنسانية الوحيدة التى عجزت عن تغيير المجتمع ؛ لأن النوع الإنسانى لم يكن بعد فى حالة تسمح له بذلك .

ثورة دامت من العمر الزمنى قرنين أو نحوهما ، بكل معانيها الاجتماعية والمادية والأدبية ، فى عنفها ورقتها ، فى

ماديتها ، وفى فكرها . إن عمر الثورة فقط يقارب عمر دول وشعوب فى وقتنا الراهن ، والتى كتب عنها ووصفت كانهيار فى النظام القائم (كنهاية للدولة القديمة (، أو هى ثورة اجتماعية ذات اتجاه عقائدى ، أو لاستنزاف المجتمع بعد عصر الأهرامات ... إلخ .

لكنها كانت ثورة إنسانية ، تعبيرا مباشرا عن ضرورة التغير والتطور داخل المجتمع المصرى الذى وصل بحضارته الزراعية إلى نهاية حدية ، ولم يستطع تجاوزها ؛ لأنه كان وحيدا متوحدا فى ذلك ، حتى بالقياس لأقرب حضارة ومجتمع إليه – العراق الذى كان ينجز توحده ووحدته الاجتماعية فى ذلك الوقت ، مع الحضارات الصينية والهندية التى استكملت وحدتها الاجتماعية بعد ذلك بعدة قرون ، أما الأمريكتان فكانتا تشق طريقهما داخل النمط الزراعى ، والأنماط الأفريقية لم تتجاوز بعد حضارة جمع الغذاء . والجماعات الرعوية الخضراء من مناطق السافانا والاستبس تطور قدرات قتالية ، وتواصل فعلها المادى على بعضها ، مع بدايات تطوير قدرتها الحركية .

أما الجماعات الرعوية الصحراوية فى المحيط الجغرافى لمصر ، فلم يكن يعرف عنها شىء بعد .

الحضارة المصرية وحدها أنجزت بشكل نهائي وحدى ، وما تزال تسعى بعض المجتمعات أو الشعوب والجماعات ، حتى وقتنا الراهن فى إنجازه ، سواء كنشاط مادى ، أو تكوين مجتمعى ، أو كدولة وموضوعات أخرى كثيرة . فكانت الثورة تعبيرا عن وصول كافة الشروط المادية والاجتماعية والفكرية إلى نهايتها الحدية ، ووجب التجاوز للتطور . ولأن ذلك غير

ممكن بمقاييس ذلك العصر ، فقد استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان .

وأخيرا وتدريجيا ، أدرك المصريون مرة إلى الأبد أن الثورة بهدف التغير الجذرى للواقع المادى ، والاجتماعى ، عمل غير ممكن ؛ لأن شروطهم وشروط النوع فى مجموعه لا تسمح بعد بذلك [ولن تسمح به إلا فى ظل شروط أخرى ، لم تتحقق بعد] . وهدأت الثورة وعادت مصر ، والحضارة ، أقوى مما كانت بعد أن استوعبت الدرس ، وطرحت على نفسها حلولا بديلة لتلك المسألة :

١- حلا ماديا : يتمثل فى نشاط خارج المجتمع المصرى ، لتطوير وتغيير المحيط الإنسانى حولهم ، بديلا عن التعامل والتفاعل السابقين .

٢- حلا اجتماعيا : فى تنشيط الحراك الاجتماعى بين فئات المجتمع ، وتقسيم للسلطة بين إداراته الثلاث .

٣- حلا فكريا بإلغاء موضوع الثورة المادية الاجتماعية ، مقابل ثورة عقائدية فكرية ، تعمل على تخليق مجتمع لا وجودى يقوم على :

أ- الوجود المادى للمجتمع هو لخدمة ما بعد الوجود .

ب- عمل أفراد المجتمع المادى والاجتماعى يقرر درجة **حسابهم العادل فيما بعد الوجود.**

فكانت العقيدة الأوزيرية ، بقصصها ، ومفرداتها ، وتاريخها ، وأهمها : القيامة والبعث والحساب العادل لكل شخص مهما كانت مرتبته وعمله .

الجزء الثانى

الخط العام :_

تتبعنا فى الجزء الأول التطور الحضارى الإنسانى الذى شق طريقا طويلا بدأ بجمع الغذاء ومنه إلى حضارة الفائض الغذائى التى تميزت فتراتها المتأخرة بنمطين (هما : الرعوى، والزراعى) ، وعبر النمط الزراعى عن الخط العام للتطور متحولا فى النهاية إلى الحضارة الزراعية والشكل المجتمعى للوجود الإنسانى – فى مقابل النمط الرعوى وأشكاله الاجتماعية العشائرية والقبلية – وكان فى نفس الوقت نهاية حدية لهذه الكيفية من التطور الحضارى للإنسان كشكل – وظيفة .

كماأن التطور كقانون عام لا يعبر عن نفسه فى شكله النهائى ووظيفته الجديدة إلا بعد وصول "الأشكال – الوظائف" المختلفة والمتنوعة فى المرحلة السابقة إلى نهايات حدية ، وعند النوع الإنسانى يتم ذلك من خلال استيعاب وتمثل الخصائص والسمات والعمليات الأساسية على مستوى النوع فى مجموعه ، ودرجة نمو الوظيفة نفسها بقدرتها على التعامل والتفاعل مع الموضوعات المادية المختلفة والنمو الذاتى لها التى تبرز فى التحول المتزايد لكل هذا إلى موضوعات فكرية وتراكم خبروى إنسانى عام – ويتم ذلك فى الاتجاهين . تلك الوظيفة والتى من خلال نموها المطرد تعبر بشكل ما عن ماهيتها الجديدة كما وكيفا متخذة من أسلوب وعمل التراكم الكمى والنوعى للخبرة على الموضوعات وبالأشكال والممارسات السلوكية طريقها الأساسى الذى تتخذه فى التعامل مع الجزء والكل والخاص والعام – منمية ومتأثرة فى نفس الوقت بالنمو المادى البطئ ، لكنه الدائم والأكيد والمستمر فى التكوين المادى لأداة الوظيفة المركزية المادية – أو المخ الإنسانى . من المنطلقات السابقة

نجد أنه لكى تصل الحضارة الزراعية إلى نهاية حدية كان يجب أن يتحقق موضوعيا عدد من الشروط اللازمة والضرورية منها :-

أ- أن يستوعب النوع فى مجموعه فعلها المركزى - أى: التربية [الزراعة] - كأساس لوجوده المادى وإعادة إنتاج النوع.

ب- استيعاب وتمثل النوع فى مجموعه التراكم الكمى - النوعى لكافة أشكال الخبرة الإنسانية.

جـ- الاندماج المتدرج ، النشط والفعال ، للجماعات والأنماط المختلفة فى منظومة كلية ، متحولة إلى مجتمع عالمى موحد فى نطاق شروطه الجغرافية وشروط تطور خبراته ومستوى أدواته وأساليبه .

د- استيعاب الحضارة الزراعية للوظائف والأساليب والخبرة فى الأنماط الأخرى .

هـ- يصبح الوجود المجتمعى للانسان هو شكل الوجود الاجتماعى له . مع التشديد على أن تلك العمليات ليست كربونية - أو ميكانيكية الشكل والأسلوب والسلوك ، ولكنها كيفية التكوين بنفس قدر نموها وتفاعلها الكمى التراكمى .

و- **إن هذا الدمج والانصهار التفاعلي بين الحضارة** الزراعية فى نماذجها المختلفة والانماط الرعوية التى شقت طريقها فى اتجاه التطور استغرق ما يقرب من ٣٠٠٠ سنة لكى تتضح صورته الكلية وتحققه النوعى ، ومن ثم : نهايته الحدية [يمكن أن نؤرخ لتلك الفترة من بدايات الألف الثانى ق .م إلى نهاية الألف الأول بعد

الميلاد] . وذلك من خلال أشكال وممارسات شديدة التنوع من عملية استيعاب – انطلاق على مستوى الجماعات والأنماط والنوع ، الذى يتضح فى كل مرحلة بأشكال مختلفة يأتى فى القمة منها ذلك "المجتمع – الجغرافى" العالمى الموحد والذى يحتوى فى بنائه كافة التشكيلات الأخرى ، والتى يتم فيها إعادة صياغة التركيب الفئوى الاجتماعى يعبر عنها بطريقة مميزة الفئة الاجتماعية التى تقوم بإدارة ذلك المجتمع فى كليته كعالم موحد ، وفى أجزاء بنيته المختلفة التشكيلات [كأمثلة : الإمبراطورية المصرية ، الآشورية ، الفارسية ، الرومانية ، المغولية، البيزنطية ، الإسلامية ، الكارولنجية ... إلخ] .

الدوائر الأساسية :-

تشكل العالم القديم من عدة دوائر أساسية شكلت نطاق الوجود الحضارى الإنسانى ، وكونت فيما بينها تدريجيا مجتمعا عالميا ، أبرز النهاية الحدية للحضارة الزراعية ، فى الوقت الذى كان فيه النمو المطرد للأنماط الأخرى يدفع بالوجود الإنسانى إلى شكل – وظيفة جديد ، عبر مرحلة انتقالية من تلك الحضارة إلى النمط الحضارى الحركى (الذى تبلور خلال القرون القليلة الماضية (.

نجد فى البداية مصر والعراق والصين والهند : مصر التى بلورت بشكل نهائى وحدى كافة خصائص وسمات الحضارة الزراعية ، والعراق التى كانت فى سبيل ذلك (تأخرت عن مصر حوالى ١٢٠٠ سنة لتحقق وحدتها السياسية – التى تمت على يد الملك آرك لأول مرة – قبل سرجون الأكادى

ببضع عشرات من السنين) ، والصين التى مارست مرحلة المراكز – المدن حتى أسرتى يانغ شاو ، لونغ – شان وفى منتصف الألف الثانية ق . م ليبدأ بالفعل تاريخها المكتوب على يد أسرة شانج ، والهند التى انتظرت إلى بضعة قرون أخرى لتتضح فى النهاية حضارتها الزراعية [مرورا بأشكالها السندية المختلفة وتوزعها الجنوبى والشمالى – مع تأثرها الدائم بالمناطق الأفغانية – الإيرانية المجاورة لها [.

تلك المناطق التى شكلت معا [رغم التوزع الجغرافى – المكانى] أولى تلك الدوائر الأساسية والتى يمكن أن نطلق عليها دائرة الحضارة الزراعية ، ويمكننا تلخيص نتائج تلك الدائرة فى :–

أ– الفعل المركزى الإنسانى – هو الزراعة ، يقوم عليها وبها إنتاج وإعادة الإنتاج المادى لتلك التشكيلات .

ب– اكتمال البناء بالوجود المجتمعى كشكل وجودى اجتماعى للإنسان .

ج– اكتمال أدوات ووسائل التنظيم المجتمعى المتمثل فى الدولة كحالة حدية كلية لأدوات التنظيم الاجتماعى الثلاث : الإدارة ، والأمن ، ونقل الخبرة .

د– تأكيد وظيفة الإنسان المركزية فى قدرته على التفكير والانفصال بها عن الأشكال المادية .

الدائرة الثانية : هى الدائرة الرعوية الأستبسية فى السهول والسهوب الأسيوية الممتدة حتى المداخل الجبلية الأوروبية وحواف الهلال الخصيب [الجغرافى] وأجزاء من السهل الأوروبى والشمال الأفريقى ، وتميز الرعى [فعلها المركزى] بخصائص مهمة فى مقدمتها : أنه لا يمثل نشاطا إنتاجيا – عدم

الاستقرار – المرعى خارج الجماعة وخارج مجموع فعلها خاصة الإرادى منه – الجماعات الإنسانية الأخرى تأخذ صفة المرعى بالنسبة لهم – القيم الحضارية تميزت بالقابلية للنقل والتنقل . وبالتالى ، كانت الحركة هى موضوع تلك الدائرة المتنامى المركزية فى نشاطهم الإنسانى ، وبنفس القدر الذى نمت به الدائرة الأولى "التربية – الاستقرار" ثنائيتها الجوهرية ، نمت الدائرة هنا ثنائية "الرعى – الحركة" والعشيرة – القبيلة . وأضحت ومرتبطة بها مباشرة ، خاصة موضوع الحركة ، أحد أساسيات نشاطهم المادى – الفكرى ، الحركة فى أشكالها ومفاهيمها المتنوعة ، كانتقال فى الجوار والنطاق والمكان ، انتقال للجماعة ككل أو لأجزاء منها حتى لو مجموعات عددية بسيطة انتقالا مؤقتا أو دائما ، انتقال فى الزمان من خلال الاكتساب المتدرج لمفهوم السرعة ، حركة التعاملات المادية على الإنسان نفسه [قتل – حرب..] ، أدوات الحركة واستخدامها ، فعلها وخصائصها ، عمل الأدوات التى تأسست على ٣ محاور : المحور الإنسانى [قوة الإنسان العضلية] – الحيوانى [كالثور والحصان] – الجماد [العجلة والمعدن] ، أساليب المعيشة والأنماط الحياتية لهم ، والتى أفرزت وتبلورت بأشكال قابلة للحركة والنقل . كما يلاحظ الارتباط المتزايد للقيم الحضارية بالجماعة نفسها وعدم ارتباطها بالمكان [ثقافية كانت، أو اجتماعية ، أو معيشية] ، كما نتج عن كل ذلك تمايزات اجتماعية وفئوية داخل تلك الجماعات ، فبالإضافة إلى الانقسام الاجتماعى الرأسى بين الذكر والأنثى أو – المرأة والرجل ، تولد انقسام أفقى آخر داخل المجموع الذكرى بصفة خاصة ، وداخل الجماعة ككل بصفة عامة ، فئة عليا مكونة من الكتلة

الرئيسية لهم تشكل الركن المادى لموضوعها الحركى باعتبارهم قوتها العضلية [أو المحاربين والمقاتلين ... إلخ] ، فئة أخرى قامت بالنشاطات المتصلة بالعمليات الإنتاجية لأدوات الحركة [العجلة - العربة - المعدن] والتى سيتشكل عليها وبها التراكم الخبروى الإنسانى، وفى النهاية نجد فئة ثالثة خليط من بعض أبناء تلك الجماعة وأبناء الجماعات الأخرى "المستولى عليها" [بصفتهم مرعى خارجيا ومخزنا عضليا] ، تلك الفئة التى تقوم بنشاطات الجماعة الخاصة باستقرارهم المؤقت - أو الدائم ، واللذين اتخذوا شكلا نهائيا حديا هو : العبيد .

الدائرة الثالثة : شملت المستطيلات الضخمة الأفرو - أسيويه الجبلية والصحراوية وشبه الصحراوية ، والهضاب الواسعة الممتدة من الممرات الصينية - المنغولية والممرات الأفغانية، مرورا بشبه الجزيرة العربية ، وانتهاء بالصحراء الأفريقية الكبرى ، والتى نتيجة لشروطها الموضوعية افتقدت القدرة على التعامل مع المادة الجامدة فى صورتها النباتية (خشبية) أو المعدنية، واتخذت الحركة - الرعى هنا اتجاهين اختلفا عن الدائرة السابقة : **الأول** : خاص بأداة الحركة المركزية ، ونعنى بها الجمل الذى بدأت تباشيره أواخر الألف ٢ ق . م وأكدته الآثار الأشورية لأول مرة فى حدود القرن ٧ ق . م وتوسعت به ومن خلاله أنماط تلك الدائرة، وكان وسيلتها المحورية للاندماج والدمج فى المجتمع الإنسانى - العالمى . كذلك ارتكزت على بعض أنواع من الحيوان الصغير الحجم [الماعز - الخراف] لما له من بعد آخر مواز فى أساليب وأنماط المعيشة لهم [المسكن - الملبس] ، الاتجاه الأخر له توجه نوعى مميز بتحول تلك الجماعات نفسها إلى أداة حركة كلية من نوعية

جديدة ، فقد تحولت هى نفسها إلى أدوات لنقل القيم المادية التى تقدمها الحضارات المختلفة حولها ، وبالتالى لقيمها الحضارية ، ومن هنا فإنها شرعت فى تنمية وظائف اجتماعية مختلفة ، فعوضا عن إنتاج القيم المادية ، عملت على تبادل تلك القيم ، حركتها ارتبطت بنقل القيم ، قيمة – منقولة ، وهى ناقل إنسانى للقيم . وتلك الجماعات لم تتعرض فقط لعدم الانتماء المادى ، لكن أيضا لعدم الانتماء الاجتماعى والثقافى ، استقلالية هذه القيم وخروجها عن إرادتها وفعلها له نفس المعانى المتمثلة فىالمرعى الخارجي، ولذا فقد أسقطت عليه مفاهيمها وجردت القيم المادية عن مضمونها الحضارى [الذى هو فى الجوهر مضمون التشكيلات الزراعية] وعكست أسسا فكرية تتميز بالاغتراب والتجريد والسكونية ، كما أنها سعت فى تنمية أساليب وممارسات تعتمد مقومات من شأنها تسهيل عمليات التبادل .

الدائرة الأخيرة : تشكلت أنويتها المبعثرة هنا وهناك من جزر [قبرص ، كريت ، إنجلترا ، اليابان، مدغشقر ،... إلخ] وأشباه الجزر [اليونانية ، الإيطالية ، الكورية – الفيتنامية ..] وسواحل قارية ، بمعنى آخر : الساحل الجنوبى لآسيا ، والشرقى لأفريقيا، والحوض المتوسطى .

وكانت الحركة ولكن البرمائية منها هى موضوع عملها، وتمحورت حول : الإنسان [القوة العضلية] ، مواد حية محولة [خشب ، نسيج] ، عناصر الطبيعة الكبرى ، المباشرة [الماء – الهواء] وغير المباشرة [الشمس – القمر – النجوم] ، وهى الدائرة التى قامت بدورمهم فى عملية الإنتشار الحضارى بين المراكز والنطاقات المختلفة ، التى تفصل بينها مساحات مائية

واسعة ، وراكمت الخبرة الإنسانية المتصلة بالماء ، ونقل الموضوعات من مكان لآخر ، ولكنها بدلا من أن تجرد تلك الموضوعات من قيمتها الحضارية كما فعلت الدائرة السابقة ، فإنها قامت بتمثلها هى نفسها لتلك القيم وإعادة طرحها كقيم خاصة بها ، بمعنى آخر : إذا تصورنا أن قيم الآخرين هى شكل من أشكال المرعى "الفكرى" والحضارى ، فإنها قامت بالاستيلاء على ذلك المرعى ، وأعادت صياغته وطرحه من جديد بلغتها وأساليبها .

أوضح نموذج إنسانى على ذلك : النموذج الإغريقى . من ناحية أخرى ، لا نستطيع بالطبع أن نقلل من مساهمتها الخاصة داخل النوع . مما سبق نلاحظ أن تفاعلات العالم القديم كانت على أرضية واسعة مشكلة من :

أ- الزراعة - الاستقرار - المجتمع

الحركة

ب- الرعى القبيلة

التبادل

والدمج المطرد والمتنامى لكافة الجماعات والتشكيلات الزراعية والرعوية عبر عن نفسه فى شواهد وسمات كثيرة منها :-

أ- شكل ونوعية الفئات الاجتماعية التى تولت قيادة العالم القديم [مهما كانت المسميات] منذ انهيار الدولة المصرية الحديثة وحتى الإمبراطورية المغولية [بتداعياتها المتأخرة الكورية، المغولية ، العثمانية ، ... إلخ] . وأيضا الممالك البربرية الأوروبية .

ب- عمليات الدمج والاندماج فى مجتمع عالمى - جغرافى موحد [الإمبراطورية : المصرية - الآشورية - الميثانية -

الحيثية – الفارسية – الهلينية – الرومانية – الباكترية – الصينية – الجوتية – الهندوكية – الكنعنية – المغولية – السامانية – البجراتية – الفايكنج – الهون – العربية – الكوشية ... إلخ] .

ج- تبلورت الموضوعات المادية ونشاطات النوع الإنسانى سواء فى الأنماط الزراعية [أسرية – قنية – عبودية – إقطاعية ...] – أو الأنماط الحركية فى موضوعاتها الأساسية [العجلة للنقل الحركى وسقاية الأرض ... إلخ ، والحصان – الجمل – الثور – الفيل ، وقوة الإنسان العضلية [.

د- دخول المعدن إلى دائرة النشاط والفعل المركزى فى التحول به من نشاط ثانوى (فى الأنماط الزراعية) إلى فعل مركزى (فى الأنماط الحركية – فى النماذج الأوروبية بصفة خاصة – وأقصى الطرف الأسيوى الشرقى (.

فى هذا الوقت ، كان العالم الجديد [استراليا والأمريكتين] وجنوب العالم القديم [أفريقيا جنوب الصحراء] مازال فى حالة نشاط منفصل عن بقية النوع تشق طريقها ببطء داخل النمط الزراعى – الرعوى بنماذج مختلفة [مدينة أولمك – المكسيك – الانديز .. إلخ] . كما بدأت تتشكل الممالك الأفريقية منذ أواسط الألف الأول بعد الميلاد .

زوايا أخرى :-

أولا : لعل أهم ما ميز الأنماط المختلفة فى البداية هو : الشروط "الطبيعية – الجغرافية" التى تواجدت بها ، والتى لم تساهم فقط فى تحديد بدايات مجال عمل الإنسان كشكل – وظيفة ، ولكنها

انعكست أيضا – وبقدر كبير – فى تشكيل وتكوين أساليب حياته ومعيشته [بمعنى كيف يحيا ويسكن ، ويعيش] .

مما ساعد على وضوح عدة أساليب ، رغم تباينها العام فإنه يمكن إدراجها تحت نموذجين رئيسيين :-

أحدهما يمكن تسميته بالنمط الحياتى المفتوح [أو الطبيعى] فى المناطق ذات الشروط الطبيعية الوسطية ، والآخر النمط الحياتى المغلق [أو الاصطناعى] ، انتشر أولهما فى الأنماط الزراعية، وبأشكال مختلفة فى الشروط المدارية إلى جانب الدوائر الرعوية الصحراوية وشبه الصحراوية وجنوب أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى والجنوبية – استراليا ، أى ، عموما ، فى المناطق المعتدلة الزراعية والمدارية والاستوائية ، وارتبط الآخر بالمناطق الباردة فى أوربا وشمال المناطق الأسيوية الزراعية وسيبريا وشمال ووسط أمريكا الشمالية ، ذلك النمط الذى نمى مايمكن توصيفه بالوضع الكهفى للمعيشة والحياة ، ففى الوقت الذى يستطيع أن يعيش فيه إنسان يقطن أحواض الأنهار الزراعية مايقرب من ٩ شهور فى العام خارج " المأوى" ، فإن إنسان المناطق الباردة يمضى عكس ذلك حوالى ٩ شهور داخل "المأوى" ، ومايتطلبه ذلك من أشكال خاصة للملابس وأساليب التواجد الاجتماعى ، مضافا إليهم شروط العمل ووسائله ، ونوعيات الغذاء المتوفر مكانيا وموسميا وطرق وأساليب تناوله. وفى ظل الاستيعاب المتبادل بين الأنماط يكمن خطر التشوه للأساليب ، خاصة فى مرحلة استقبال القيم المادية ، التى تستدعى تمثلا موازيا لقيمها الاجتماعية ، ومن ثم تحتاج الأنماط المستقبلة إلى فترة زمنية معقولة لإعادة الاستيعاب الوظيفى لذلك، والاندماج فى الطريقة الكلية للنوع ، كما قد يندمج بعض

من تلك الأنماط اندماجا تاما وينصهر فى الأشكال الأخرى [كما جرى به العرف عندنا فى مقولة " التمصير"] ، وأنماط أخرى قد ترفض أى تجاوب وتتحول إلى أشكال متحفية – أو تنتهى حتى كوجود مادى . والجماعة الأكثر أهلية – بلغة أهل القانون – هى التى تستوعب بطريقة وظيفية ، أى تصبح جزءا فعالا ونشطا داخل النوع .

وبشكل عام ، تتم عمليات الانصهار والتفاعل للأنماط المختلفة مهما كانت درجة المقاومة للفئات المختلفة ، من جانب آخر يظهر ذلك أحد قدرات الفئة الاجتماعية القيادية كوسيط وناقل للقيم والأساليب ، وقدرتها على تنمية الوجود الاجتماعى لتشكيلتها ، ذلك الوجود الذى يوضح فى أشكاله المتنوعة التمايزات داخل مجموع الفعل الإنسانى .

ثانيا : يجذبنا الحديث هنا إلى عدد من النقاط التى قتلت بحثا وحديثا ، ولكننا سنلقى عليها نظرة أخرى من خلال وجهة النظر التى تبنيناها منذ البداية .

فى البداية نشير إلى "المدينة " ، ذلك التجمع البشرى ، أحد الأشكال المركزة للنوع ، والتى شكلت أحد الأركان المهمة والأساسية فى الشئون التاريخية منذ بداية العصر التاريخى المتعارف عليه من الأسرة الأولى المصرية ، خاصة أن الحديث عن الحضارة الإنسانية بصفة خاصة من وجهة نظر أوربية [وتابعتها الأمريكية] يعتمد فى كثير منه على حضارة "المدن الإغريقية" و "المدن الرومانية" وتميز ذلك بقدر عال من التميز ضد " المدن – الزراعية" – أوحتى غيرها من المدن فى العالم القديم ، رغم أن مدينة مثل طيبة – أو منف – عاشت ولعبت

أدوارا فى التاريخ الإنسانى لم تبلغه أكثر المدن قدما مثل "أريحا" [التى يعتبرها البعض أقدم مدينة فى العالم - !!] ، أو حتى روما (المؤسسة حوالى ٧٥٣ ق.م) ، أو حتى واشنطن التى بنيت أول أمس [بمفاهيم وأبعاد التاريخ الزمنى المصرى] . لقد كانت طيبة ومنف مدنا - عواصم للمملكة المصرية- التى كانت المملكة والمجتمع المحلى والإقليمى والعالمى الوحيد أكثر من ١٥٠٠ سنة دون انقطاع - فى وقت كانت فيه الشعوب الإيبيرية مازالت فى مرحلة تميزت بوجود آكلة لحوم البشر ، وكانت " المدن - اليونانية" تعيش الحضارات المنيوية وإلى جانبها ، وبعدها النمط " الطروادى " ، وكانت العراق المعاصرة مليئة بعدد من المدن أضعاف ماتشكل وتكون طيلة المرحلة الهلينية - الرومانية.

ولم تجد الخلافات العربية إلا أرضا خصبة مليئة بمئات وآلاف المدن التى تكونت داخل نسيج المنطقة خلال الاف السنين .

وهذا ، خلاف الحديث حول القرى والنجوع والكفور والمراكز .... إلى آخر كافة أشكال التجمع الاجتماعى والوجودى للجماعات الإنسانية .

لكن المدينة ، تحديدا ، هى التى لفتت النظر وشدت الانتباه - بوصفها مقر الدولة ، مقر الحكم . إنها المجتمع فى أشد حالات تركيزه الاجتماعى والمادى واللامادى ، وفيها تتركز إدارات المجتمع الثلاث : الإدارية - الأمن - الخبرة .

ولكن المدينة فى النهاية هى تجمع إنسانى وظيفى - أى له وظيفة محددة - ولو لم تكن تلك الوظيفة ماكانت المدينة بالفعل . إن تلاشى مدن كاملة على مر التاريخ إنما كان يعنى

مباشرة انتهاء وجودها " كشكل - وظيفة" اجتماعى - مادى للنوع الإنسانى - لتلك الجماعة بالذات .

كما نود أن نشير إلى ٣ أنواع من المدن انتهى إليها العالم القديم [حتى بدايات الألف الثانى ب.م] وهم : المدينة - الإدارية ، المدينة - السوق ، المدينة - المعسكر . لذلك كان من السهولة بمكان أن تظهر العديد من المدن - المعسكر أو السوق هنا وهناك لبضع عشرات من السنين أو حتى لبضع قرون ، ثم تذهب إلى حال سبيلها كما لوكانت لم توجد أصلا ، والتى يرتبط ظهورها ببروز مؤقت لقبيلة هنا وأخرى هناك ، أو ضرورة تبادلية ، وبمجرد انتهاء وظيفتها تنتهى معها تلك " الحواضر - المدن " ، أو باستيلاء جماعة أخرى عليها ، بينما المدينة- الإدارة فى المجتمعات الزراعية كانت مستمرة فى المكان والزمان استمرار الحضارة الزراعية نفسها ، ونهاية تلك المدن إنما كانت علامة على وصول الحضارة الزراعية نفسها إلى نهاية حدية ، وربما كانت فقط تنتقل المدينة فى الجوار المكانى المرتبط أساسا بتفاعل تلك المجتمعات مع الأنماط حولها، ودرجة تطور نمو قواها الذاتية الداخلية [مثل : أور - بابل - آشور - نينوى - بغداد - الموصل ، طيبة - منف - الإسكندرية - القاهرة] من جانب آخر لم يلفت النظر من قبل ، أن مرحلة "المدن" السابقة عموما بفترات زمنية معتبرة للوحدة السياسية والاجتماعية فى شمال المتوسط [أوربا أساسا] وهى الصيغة المطلوب تطبيقها قسرا على بقية النوع - للأسف الشديد مردود عليها حتى من وجهة النظر الأوروبية فنشير - كأمثلة فقط - إلى مايلى :- عايشت مصر عصر " المدن - المصرية" حوالى ١٠٠٠ عام قبل وحدتها النهائية على يد مينا [من ٤٢٦٠

إلـى ٣٢٠٠ مـن التوحيـد الأول وبدايـات التوقيـت الزمنـى] ، العراق التى أنجزت - بالمعنى السـابق - وحدتهـا السياسية فـى حدود ٢٢٠٠ ق.م عانت من عصر "المدن " حوالى ٢٠٠٠ سنة أخرى منذ الوركـاء والعبيد ، الصيـن التـى أنجـزت وحدتهـا السياسية متأخرة نسبيا حوالى أسرة شابخ [فى النصف الثانى من الألف الثانى ق.م] - يلاحظ هنا أن فى هذا الوقت تقريبا كـانت الهجـرات البربريـة التـى دمـرت الحضـارة المينوبيـة وحضـارة كريت فى أوج قمتها والتى كللت ب" المـدن - الإغريقيـة " فيمـا بعد .

بينمـا مدينـة مثـل " موسـكو" انتظـرت حتـى القـرن ١٤م حتى يكون لها ذكرا وحدثا . وعلـى الرغـم من كل هذا ، فـإن المدن - الإدارة للحضارات الزراعيـة لـم تفقد موضعهـا أبدا ، بمجرد استيعاب - انطلاق الأنماط مع بعضها ، فإنها تعـود إلـى ممارسة "الوظيفـة" مـرة أخـرى . هكـذا كـان لآلاف مـن السـنين محاور مثل بابل - آشور ، طيبة - منف ، ثم تحولت إلـى أثينـا - الإسكندرية ، وروما - الإسكندرية لتشـكل المثلـث "المدنـى" : أثينا - روما - الإسكندرية ... إلخ .

بـالمعنى والمقصـد الأوروبـى ، فقـد خـاضت واسـتكملت الحضارات الزراعية عصر المدن فيها قبل أقدم المـدن الأوربيـة بفترة زمنية بين بضعة قرون وبضعة آلاف من السنين .

ولكننا ، مرة أخرى ، مع وجهة نظرنا التـى تؤكـد علـى أن "المدينة" فى النهاية هـى "شـكل- وظيفـة" اجتمـاعى - مـادى للنوع الإنسانى ، وإذا انتفت وظيفتها تلاشت المدينة [أيا كان هذا الشكل : هجر ، تدمير ، كارثة طبيعية ، غـارة ونهب ، هزيمـة ...إلخ] .

إن مدنا مثل جنوا والبندقية كانت نوعا من "المدينة – السوق " ، طرابزون – قرقميش – المدن المغولية – الفسطاط كانت نوع من "المدينة – المعسكر ، كما نستطيع أن نجد مدنا تجمع وتحتوى فى وظائفها الأنواع الثلاثة مثل بيزنطة " القسطنطينية" وهى مدينة : إدراية – عسكرية – سوق ، أنطاكيا " المعسكر – السوق " ، بكين " المعسكر – الإدارة "، قرطاج روما .... إلخ .

والحديث عن المدن يجعلنا نتحدث عن نظام الحكم . إن نظام الحكم لم يكن إلا نظاما فرديا مبنيا على حكم فرد يساعده مجموعة من المساعدين [تتروواح فيه المسميات من الفرعون ، الملك، الزعيم ، الشيخ ، الخليفة ، رئيس القبيلة ... إلخ ، والمساعدين حاملى أختام ، مكلفين ، وزراء ، سناتو ، مجلس شيوخ ، شورى ... إلخ] ولكن الذى شد الانتباه واعتبر "ديموقراطيا" هو النموذج الإغريقى وبعده الرومانى ، بينما عبر عن الآخر بـ"النظام الشرقى الاستبدادى" . وموضوع الاختلاف فى شيئين أساسيين : **الأول** شكلى ، وهو : أسلوب وطريقة الاختيار للزعيم ، والآخر : أسلوب الحكم وطرق تنفيذه .

إن الفرق بين النظامين ليس فى الواقع فرقا شكليا ومسمياتيا فقط ، ولكنه فرق النمطين الذى مثلهما ، الحضارة الزراعية ونظام الاستبداد الشرقى ، والأنماط الرعوية حتى بعد تحولها إلى الأنماط الحركية والتبادلية ونظام " الاستشارية والسناتو ... إلخ " والذى فى النهاية يعبر عن القبائل والعشائر وليس عن مجتمع [كانت القبائل الـ ٣٠ المشكلة والمؤسسة لـ" روما" هى التى لها حق التصويت وتعيين السناتو – فضلا عن نظام التراتبية البديل عن العشائرية فى الجانب الإغريقى –

وفى النهاية تنتهى بالوراثة حتى فى الأسر العربية فترة الإمبراطوريات الأموية والعباسية – والمغولية منتهية سواء بتيمورلنك أو العثمانية أو حتى فى غرب أوروبا مثل الكارولنجية] . بينما الوضع مختصر فى النظام الزراعى الذى ينحصر أساسا فى سلالة "الفرعون" وفى زمن شديد العمق – عندما كانت الحضارات الزراعية فى المرحلة الماقبل مجتمعية فإنها كانت تعيش تقريبا نفس الطقوس والتى تبقى منها حكام الولايات ومجالس القضاء . وفى الآخرة نجد القضاة الأربعين اللذين يعاونون أوزير فى حكم العالم الآخر . كما أن الخلط بين توحد السلطات فى شخص الفرعون أو الإمبراطور وبين الاستبداد خلط واضح وبين – كما يوضح لنا التاريخ – : لقد كان للفرعون نظام منذ أن يصحو من نومه حتى ينام ولم تعدم أى حضارة زراعية مايقرب من ٦٥٠٠ شخص صلبا [ثورة عبيد روما الشهيرة بثورة سبارتاكوس فى ٧٣ق.م] نتيجة العصيان والثورة الداخلية " رغم استبدادها الشرقى " ، بل لوصدقنا المزاعم والأوهام التوراتية ، فإن فرعون مصر ترك " العبرانيين" يخرجون من مصر ليس "بجلدهم" ولكن بكل مايمتلكون .

إذن ، فإن موضوع الطغيان الشرقى والديمقراطية الإغريقية يحتاج إلى مجال آخر ، وهذا ليس دفاعا ولاهجوما على هذا أوذاك ، ولكن فقط أردنا توضيح كم الخلط فى المفاهيم والأسس التى شكلت ليس فقط دعائم الفكر الأوربى ، لكن – الأخطر – دعائم فكرنا أيضا .

إن عملية الدمج المتتالى بين الحضارة الزراعية والأنماط الرعوية – الحركية ، والرعوية – التبادلية دفع الاتجاه

المتنامى لتحويل القيم المادية المنتجة إلى قيم مادية مجـردة – أو ثروة – والتحول بالرعاة ومفاهيمهم من الكـم البشـرى إلـى الكـم الثروى [الإغريق – الرومان – العرب] ويصبح تراكـم الثروة بديلا عن إنتاجها ، كما اتجهت أثناء تلك العمليات أنماط المركـز فـى الحضـارة الزراعيـة إلـى الفصـل التدريجـى والمستمر بيـن إدارات المجتمع الثلاث ، فاتجهت للاحتفـاظ بـالإدارة الداخلية ، خاصـة المتعلـق منهـا بإعـادة الإنتـاج المـادى للمجتمـع وشـئونه الإداريـة ، وحدثت شـراكة فيمـا يتعلـق بـ " نقـل الخـبره" و" الكهنوتية" وغيرها ، ولكنها تخلت عن الإدارة – الأمنية للأنمـاط الحركية . فمثلا نجـد أنـه بوصـول الإدارة المصريـة إلـى نهايـة حدية فى قدرتها على أداء وظيفة "الأمن" والدفاع عن الـوادى ، فقد تخلـت عـن ذلـك وبشـكل يكـاد يكـون طوعيـا إلــى الأنمـاط الحركية حولهم منذ انهيـار الدولـة الحديثـة [ليبييـن ، نوبييـن ، بطالمة ، رومان ، عرب، مماليك ... إلخ] .

وانعكس ذلك علـى الكينونـة الاجتماعيـة المصريـة التـى أضحت جزءا من الأنماط الحركية أو التبادلية التى تتولـى إدارة المنطقـة والدفـاع عنهــا – أو جـزءا مـن المجتمـع العــالمى – الجغرافى ، مما أفضى إلى حدوث تحـول تدريجـى ومنتظـم مـن التركيبة الفئوية الاجتماعية المصرية ، بتحول الفئات القيادية فـى مجموعها إلـى فئـة وسيطة بين قـوة العمـل (الـزراع) وإدارة المنظومة الكلية [فى شكلها الإمبراطورى] ويصبح جديرا بالنظر والملاحظة أن الفئة الحاكمة والقيادية على مستوى الإمبراطورية هى فئة " غير جنسية" أى ليس بالضرورة أن تكون قيادة منطقـة ما من بين أهلها مباشرة ، بـل مـن الأنمـاط المسيطرة [هنـاك أبـاطرة سـوريون ، مصريـون ، غـاليون ، .. فــى رومـا ،

المماليك، رجال الحكم فى العصر العباسى ، جيوش المغول [إن شعب خيتان فى الصين انضم فى مجموعه إلى جيوش جنكيزخان انتقاما من قبائل " الكن" التى هزمتهم فيما سبق].

إن مانسميه حاليا بـ "المصالح" كانت قديما لها أشكال وأساليب أخرى لاتنطبق عليها مقاييسنا الحالية ، ولكن يجب التنويه هنا إلى أن الفئة القيادية بشكل عام داخل تشكيل اجتماعى معين يجب أن تكون جزءا عضويا من الفئة القيادية على مستوى المجتمع الجغرافى – العالمى لها . وسهل تلك العملية ذلك التكوين الاجتماعي للحضارة الزراعية المتميز بالانقسام الأفقى ، وذلك التقسيم الاجتماعى الرأسى لقبائل الأنماط الحركية والتبادلية .

العناصر الأساسية :_

فى بوتقة النوع ، انصهر العالم القديم ، وتفاعلت أسسه المادية : الزراعة – الحركة – التبادل ، المعبرة عن نشاطه وفعله ووجوده " كشكل – ووظيفة " . تعامل خلالها النوع مع موضوعاته المختلفة باعتبارها كشكل أكثر منها " شكل – وظيفة " . وصل فيه الفعل الإنسانى إلى أعلى درجات هذا التعامل " الشكلى" – أو لنهاية حدية ، يمكننا ملاحظتها من خلال بعض الأمثلة:-

(١) الحجر :- كأداة ، بداية من تقشيرها ، وانتهاء باستخدامها فى المقلاع ومشتقاته .

- فى أساليب الحياة ، من مصطبة بدايات النمط الزراعى إلى نهايات حدية نموذجية فى فترة امتدت من هرم زوسر إلى معابد "أبو سمبل" ، ونهاية حدية

نهائية [بعد الاستيعاب] فى قلاع وكنائس أوروبا فى العصور الوسطى ، أحد أدوات العمل الأساسية فى الفنون .

- فى الحركة ، فراكات ، رحايات الحبوب

(٢)النبات:- موضوع الفعل المركزى الزراعى .

- اتجاه حدى لتراكم الثروة - والطاقة فى الأنماط الزراعية.
- أداة حركة حدية : العجلة ، القارب ، جسم السفينة، العربة .
- استخدامات حدية مختلفة مثل : مصدر طاقة ، مادة تداول (الخشب) ، أثاث ، بناء ، ملابس ، غذاء ، دواء ، مادة عمل فى الفنون (مثل الصبغات) .
- أعظم استخدام " إنسانى" وهو : الورق [البردى].

(٣)الحيوان:- موضوع النمط الرعوى الحدى

- أداة حركة ونقل [الثور - الفيل - الجمل - الحصان] .
- موضوع فعل فى النمط الزراعى (تربية) ، وأداة عمل .
- استخدامات حدية : غذاء ، طقوس ، ملابس ، أداة قتال .

(٤)الإنسان :- منتج قيم - قيمة منتجة ، العبد كاستخدام حدى للإنسان بصفته أداة ، القتل والحرب كفعل حدى داخل النوع ، الزعيم (ومسمياته) نهاية حدية للتميز الاجتماعى ، ناقل

نموذجي حدى للقيم ، قوة عمل فى الزراعة ، قوة عضلية فى الحركة ، مجموع العبيد أحد أشكال تراكم الثروة والطاقة .

(٥)الدولة :- نهاية لأدوات تنظيم الوجود الاجتماعى الإنسانى فى شكله المجتمعى ، بإداراتها الثلاث : الإدارية - الأمنية - الكهنوتية .

- المجتمع [ولمستقبل كبير] شكل حدى للوجود الاجتماعى الإنسانى [الإقطاع الأوربى ، هو النمط الأوربى الزراعى له وكان تعبيرا عن تمثل الأنماط الحركية للعمل الزراعى] .

ورغم عمومية وكلية تلك العناصر التى شكلت الأسس الجوهرية فى إنتاج وإعادة الإنتاج المادى للنوع ، إلا أنها تباينت فى أجزائه وأقسامه المختلفة ، وفق طرق وأساليب الاستخدام ، ودرجة أهمية كل عنصر داخل البناء المميز لكل جماعة ، والعناصر الثانوية والمكملة لها ، مما انعكس فى طريقة الانتاج ذاتها ، والتى ساهمت بشكل رئيسى فى تحديد نماذجها الاجتماعية .

من ناحية أخرى ، نشير إلى نقطة أغفلناها عمدا وهى : العناصر الطبيعية التى تشكل الإطار المرجعى للنقاط السابقة [مثل : الهواء - الماء - التراب - النار - الشمس .. إلخ] ، على اعتبار أنها تشكل - بالمفهوم الرياضى - المسلمات والبدهيات الأساسية فى البناء السابق .

كما نود الإشارة بشكل خاص إلى نقطة معينة وهى : أنه إذا كان الفائض الغذائى للجماعة شرطا لازما وضروريا لبقائها ، فإن خصائصه وأشكاله المادية ، وكميته ، إلى جانب

وظيفته الاجتماعية [خاصة فى نقل الخبرة والتبادل] لعبت دورا هاما فى تحوله من قيم مادية متصلة بالوجود المادى والاجتماعى المباشر للجماعة إلى قيم مادية قابلة للتبادل ، أساسا، مع قيم أخرى لاتتوافر ضمن شروط تلك الجماعة [مثل الحبوب مقابل الخشب أو المعدن – المعدن مقابل الحبوب ...إلخ] ، وكان ذلك تطورا كيفيا بتحول الفائض إلى تراكم مبادل يتخذ شكلا حديا نباتيا فى النمط الزراعى ، وشكلا حديا حيوانيا فى النمط الرعوى . وفى التحول للأنماط الحركية والتبادلية ، اتخذ شكلا حديا آخر ، بتحويل الإنسان نفسه إلى مادة تراكم – تراكم مادى وطاقوى ، من خلال استيعاب المفاهيم والأسس الزراعية والحركية والتبادلية ، فيتحول من قوة عمل زراعى إلى أداة عمل زراعى فى الأنماط الرعوية المستقرة حديثا ، كما يتحول إلى مخزن عضلى رئيسى لقوة الأنماط الحركية ومادة تبادل مقبولة من الجميع ، ويصبح لها فى النهاية وظائف اجتماعية .

وهكذا ، أصبح للثروة ٣ أشكال : ثروة الحبوب ، وثروة القطيع الحيوانى ، وثروة العبيد .

هذا ، فى الوقت الذى كان النشاط الإنسانى المطرد والمتنامى على المعادن يشق طريقه داخل المنطقة الأحدث داخل العالم القديم – أوروبا – التى أصبحت زراعية بشكل نهائى منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية ، واستدعى ذلك بضعة قرون حتى تتضح الصورة الكلية من خلال أوروبا الإقطاعية .

جوانب وشواهد أخرى :-

١- لقد كان للكم الهائل من الحروب داخل نطاق النوع تأثير مباشر على كافة من تناول بالحديث الحضارة الإنسانية وأساليب تطورها ، وكانت الدعامة الأساسية التى جعلت " توينبى" يرى فى ذلك التطور ما أسماه بـ" الاستجابة والتحدى" واضعا بذلك الأنماط الحضارية المختلفة فى مواجهة بعضها كما جرت العادة بعدم تصنيف حالة النوع فى المرحلة الماقبل سومرية والماقبل مصرية بأى نوع من أنواع التصنيف الحضارى [التصنيفات الحجرية والأدواتية الأركيولوجية لانعتبرها بحق تصنيفا حضاريا] . ورغم شمولية نظرته الإنسانية ومحاولته الصادقة لإيجاد الخط الإنسانى ولحمته الأساسية داخل هذا المسار التاريخى ، إلا أن مسألة الحرب أو الصراع كانت هى المسيطرة إلى جانب بقية أشكال المنطق الغربى عامة فى أسلوب تناوله لتلك المسائل . [تلك فقط ملاحظة مبدئية ؛ لأن التناول النقدى لوجهة نظر توينبى ليست عملنا هنا] .

نحن ننظر إلى جماعات النوع وأنماطه الحضارية ليس من منطلق أنهم فى مواجهة بعضهم البعض، ولكن من منطلق أنهم فى تفاعل وانصهار مع بعضهم البعض - وأنهم ليسوا فى حالة استجابة وتحد ، ولكنهم منخرطون كنوع فى عملية " استيعاب - انطلاق" : **استيعاب مختلف الجماعات والأنماط ، لمختلف** المعارف والخبرات ، لمختلف الأدوات والأساليب ، ثم الانطلاق بها ومنها إلى مرحلة تطورية أخرى .

وعملية " الاستيعاب - الانطلاق " تستند أساسا على الدمج الطوعى والقسرى [لانريد استخدام لفظ الطبيعى حاليا] لكل الأشكال والأساليب والطرق فى منظومة كلية ، تفرض فعلا

مركزيا وشاملا على النوع ومجموعة ثانوية مكملة له ، ويصبح التباين معتمدا على الوحدات المختلفة [كبرى – أوصغرى] والأنماط الحياتية . ومظاهر تلك العملية متنوعة ومتعددة ، فقد تكون كمونا ظاهريا ، تكوين وإعادة تكوين التشكيلات الاجتماعية ، التراكم المادى والخبروى ، الحروب والقلاقل والانهيارات ، التمدد والانكماش الجغرافى ، الانتشار الواسع للأدوات الأكثر تقنية وتقدما ، ذلك التغير الدائم والمستمر فى النسيج الاجتماعى العام ، خاصة فى الفئة القيادية ، الشروط اللامادية المتنوعة [فنون – عقائد – أدبيات – علوم – فكر – ... إلخ] .

إن الشكل الذى يبدو به أحد الأنماط على أنه حالة "حضارية متحجرة" تعنى فى الأساس أن هذا النمط تعرض لعزلة زمكانية كبيرة وتاريخية عن بقية النوع ، ولم تحدث له عملية دمج وانصهار داخله ، وهى حالة مختلفة عن حالات "التحجر الثقافى" (مثل ثقافات : اليهود ، قبائل الهنود الحمر ، وسكان الجزر المتناثرة فى المحيطين – أو حتى التحجر الثقافى الذى تأخذ به بعض وحدات الأقليات العرقية داخل نسيج من أغلبية مخالفة لها) .

كما أن عملية التطور يستحيل حدوثها إلا بعد أن "يستوعب" النوع فى مجموعه الأساليب القديمة والمعاصرة ، بعدها تبدأ عمليات "الانطلاق" فقط من بعض أقسامه وأجزائه ، ثم يجرى نشرها و"استيعابها" من بقية أجزاء النوع .

إن عملية "الاستيعاب – الانطلاق" هى جوهر التطور الحضارى الإنسانى ، تماما كإنتاج وإعادة إنتاج النوع التى هى جوهر الكائنات الحية ، وواقع الصدام الحادث بين الجماعات

وداخل الجماعة الواحدة يستند ليس فقط إلى مقاومة الأبنية والأشكال القديمة ، ولا فقط إلى العمل الدءوب للفئات فى الحفاظ على مصالحها وامتيازاتها ، لكنه يعتمد أيضا على محور طبيعى آخر وهو أن الإنسان منذ ظهر وحتى الآن هو فقط "مادة فاعلة" وهو بصدد التحول إلى مادة مفكرة (مستقبلا) .

كما أن دمج الجماعات وانصهارها هو تفاعل - والتفاعل يتعامل مع قدر معين من الطاقة، منطلقة وممتصة . وهذا القانون الطبيعى يسرى على النوع الإنسانى كما يسرى بالضبط على المواد المتفاعلة غير الحية .

إن أى نوع من أنواع الكائنات الحية لا يستطيع إلا أن يسلك ويعيش بطريقة واحدة، والإنسان ليس استثناء من ذلك، وإنما يكمن الاختلاف فى الطريقة التى ننظر بها إلى الأمور أو الإسقاطات المختلفة لمعاييرنا ومفاهيمنا . إن وحدة سلوك ومعيشة النوع الإنسانى تعبر عن نفسها من خلال وحدته الحضارية (رغم تنوع نماذجها) .

ولذلك ، فإننا نطرح هنا عملية "الاستيعاب - الانطلاق" التى يتم بها ومنها دمج الجماعات بشكل دائم ومستمر داخل النوع ، وكذلك الطريقة التى تتم بها عملية التطور الحضارى ذاتها .

٢- من المظاهر الحضارية التى اعتبرت دوما عاملا مرجعيا وهاما فى التطور الإنسانى: العقائد الكبرى . الأشكال المختلفة التى اتخذتها العقائد تراوحت بين نموذجين أساسيين : نموذج ما قبل الإخناتونية ، ونموذج ما بعد الإخناتونية - أى ما قبل الإمبراطورية المصرية وما بعدها (إن صحة استخدام التاريخ المصرى المكتوب كفاصل اختيارى بين ما قبل وما بعد

التاريخ ، يصلح أيضا هنا فى أن نعود مرة أخرى إلى المرجعية المصرية فى تحديد نموذجي العقائد الإنسانية (.

ما قبل الإخناتونية تمحورت حول الطوطمية ، والسلفية، والوثنية ، والطبيعية ، ومجتمعات الآلهة ... إلخ والتى عكست حضارات وأنماط الفائض الغذائى أساسا ، وانطلاق العمليات الأساسية (النار – التربية – التجمعات الإنسانية – التعامل مع المواد والعناصر الطبيعية .. إلخ) .

ما بعد الإخناتونية (الدمج والانصهار – الوحدة والتوحد – النوع الإنسانى) تركز فى مجموعتين وصلت كلتاهما إلى نهاية حدية :

المجموعة الأولى هى : مجموعة النهاية الحدية السماوية (يهودية – مسيحية – إسلام) .

والمجموعة الثانية هى : مجموعة النهاية الحدية الإنسانية (زرادشتية – كنفوشية – بوذية (بتفريعاتها) – هندوكية (بتفريعاتها) – البقورية) وبقدر ما عبرت الأوزيرية عن النمط الزراعى الخالص ، كانت الآتونية تعبيرا عن انتشاره داخل الأنماط الأخرى .

وبنفس المعنى : كانت اليهودية تعبيرا مقابلا عن النمط الرعوى الخالص ، بينما كانت المسيحية تعبيرا عن انتشاره داخل الأنماط الأخرى ، بينما عبر الإسلام (بنفس السياق والمعنى) عن التحول النهائى إلى النمط التبادلى .

ومن المهم أن نشير إلى أن المستطيل الضيق (جغرافيا) والموازى لساحل المتوسط وساحل البحر الأحمر الشرقى والواقع تحت التأثير المباشر والمركز لحضارات مصر والعراق طيلة آلاف السنين – هو المصدر الوحيد للعقائد السماوية ، بينما

كانت تقاطعات المحاور الأسيوية الكبرى (الإيرانـــى – الهندى ، الإيرانى – الأفغانى ، الهندى – الصينى) هو المصدر الوحيد للعقائد الإنسانية . وقد استغرقت تلك العقائد أربعة عشر قرنا (من ٧٠٠ ق . م إلى ٧٠٠ ب . م) حتى تتضح بشكل حدى ونهائى تعبيرا عن وحدة النوع البشرى للعالم القديم النهائية والحدية ، كما عبرت عن الدمج النهائى بين الأنماط والحضارات بتحول النمط الرعوى – الحركى ، والنمط الرعوى – التبادلى – إلى نمط انتقالى هو النمط الحركى – التبادلى داخل النسيج العام والشامل للحضارة الزراعية ، لكن بشكل كانت له الغلبة والقيادة . والذى تحمل العبء المباشر خلال تلك الفترة لتوحيد نمط حضارة النوع فى عمومه .

٣- من الأساليب الأخرى المعبرة : ذلك التجسيد الإنسانى المباشر لمجموع معارف وخبرات النوع الكمية – النوعية خلال كل مرحلة .

يلاحظ مثلا أن الفترة الأولى (غير المدروسة بعناية ولا كفانة هى فترة زروة الحضارات الزراعية) حتى فترة الأهرامات بين هرم زوسر وهرم خوفو ورمزها الإنسانى كان بتاح حوتب ، كما لم يلتفت أحد بما فيه الكفاية إلى موضوع قناة سيزوستريس التى وصلت البحر الأحمر بالنيل (لا تجاريا ولا علميا ولا حضاريا) وحتى نسهل الموضوع ننتقل إلى فترة التجسيد الثانية بين القرن ٦ ق.م والقرن ٢ ق.م والتى شهدت من جانب العقائد الكبرى (كونفوشية- البقورية – زنونية – زرادشيته – بوذية – هندوكية) ومن جانب آخر : الأفكار الكبرى ومرحلة العلوم (طاليس ، أناكسميدار ، أميروكليس ، أرسطو ، فيثاغورث ، هيرو ، أرشميدس .. إلخ) – كما أنها

كانت فترة الكتابات التوراتية والتى استولت فيها على كثير من الأبعاد العراقيــة والإيرانيــة ، والمصريــة (بعـد السـبى الأول والثانى) وانتهت تلك الفترة عمليـا بالمسيحية ، كما يلاحظ من خلال تسلسل تاريخى بسيط تطور النظرية الكلية للتكوين المادى للعالم بتقدم عمليات دمج وتوحيد الأقاليم القديمة الما قبل ميلاديـة (طاليس (٦٠٠) : الماء هو أصل الأشياء ، أناكسميدار (٥٩٠): الهواء أصـل الأشـياء ، هرقليطـس (٥٣٥-٤٧٥) : النـار أصـل الأشـياء، أمـيروكليس (٤٨٤-٤٢٤) الهـواء - المـاء - النــار - الـتراب هـى عنـاصر أصـل الأشـياء ، أرسـطو (٣٨٤ - ٣٢٢) ونظريـة الهيولـى ، بالإضافـة إلـى النظريـات الأخـرى كالذريــة والأفلاطونية والفلسفات ... إلخ) .

وقمة تلك المرحلة هى خلاصة ما أسميه النهضة العلمية الثانية (بعد عصر الأهرامات) والتى مثلها بكـل حـق أرشـميدس والتى بلورت العلوم حول ٣ مواضيع أساسية هـى : الروافـع ، والطفو ، والانعكاس .

ويلاحظ أن العناصر الأربعة : المـاء - الهـواء - النـار - التراب - شكلت منظومة الدمج والانصهار : الماء - الـتراب = النمط الزراعى ، الماء - الهواء = النمط الحركى البرمائى ، الماء - النار = أشغال المعادن .. إلخ .

كما نلاحظ فى تلك المراحل الأولـى أن التعبير المجـرد المباشـر يتـم خـارج المنخرطيـن فـى العمليـة نفسـها ، فرغـم أن التاريخ يسجل لنا أن العجلة - الحصــان نتـاج الأنمـاط الأسيوية (الرعويـة) إلا أن الاستيعاب والنشـر (الانطـلاق) تـم علــى يـد الحضـارات الزراعيـة ، تلـك الحضـارات التــى أنتجـت المـواد المختلفة ، لكن نشرها كان على يد الأنماط التبادليـة والحركيـة ،

وعلوم الرياضيات والفلك التى بدأت زراعية ، جسدها الإغريق واستوعبتها ونشرتها المدرسة "الأثينية - الإسكندرية" . والحركة المائية التى مارسها الجميع ، جسدها أرشميدس ونشرها العرب والهنود والصينيون ، لتكمل بها أوروبا أدماج المنظومة الكوكبية بدمج الأمريكتين واستراليا والقارة الأفريقية . والنحاس الذى عرف فى مصر (فى حدود ٥٠٠٠ ق.م) ، ونشره الحيثيون بداية من الألف الثانى ق . م ، ولكنه استوعب على يد الصينيين والعرب ؛ لكى تنطلق به أوروبا مجددا من القرن ١٦ م .

من تجليات الحضارة :-

تتجلى الحضارة فى مسألتين أساسيتين : تتعلق الأولى بأساليب جماعة ما فى إنتاج وإعادة الإنتاج المادى لها ، و الثانية فى النمط الحياتى التى تأخذ به وتنوعاته على مستوى الفئات المختلفة داخل الجماعة نفسها . ويتحقق ذلك على صعيدين : قدرات الجماعة الداخلية على النمو والتفاعل الداخلى ، وقدرتها على التفاعل مع الجماعات الأخرى .

بدهى أن الجماعة الأكثر تطورا تلعب الدور الأكبر تأثيرا فى بقية الجماعات ، وقنوات التأثر والتأثير تكون من خلال قيم مادية محمولة ومحملة بقيمها الأخرى ، أو انتقال أجزاء عضوية مادية مباشرة من جسم الجماعة نفسه إلى النطاق المادى المباشر للآخرين . وهذا التفاعل يكون مجاله ونطاق عمله فى بداية الأمر أنماط الحياة والمعيشة ، التى تكون الأسرع تأثرا من غيرها فى اتخاذ الملامح المشتركة والتوحد مع الأنماط الوافدة ، وفى مرحلة لاحقة يحدث الاستيعاب والتفاعل حول شروط الوجود ذاته .

وفى حالة انتقال القيم المادية فقط ، فإن التفاعل يتميز هنا بالضعف والمحدودية داخل الفئات صاحبة الامتيازات الاجتماعية التى تسمح لها شروطها بذلك . وتتحول الجماعات الأعلى حضاريا إلى موضوع أسطورى أو معجزى [رفضا - أو قبولا] داخل الموضوعات الفكرية للجماعات الأقل ، محولة إياهم إلى أنواع بشرية خاصة - أو كائنات عليا . وبالتالى فإن حركية أجزاء مادية من الجماعات تجاه بعضها البعض تعتبر شرطا ضروريا ولازما .

وبالتالى ، فرغم أهمية وصحة العوامل المناخية والسكانية والمعيشية فى تأثيرها على الهجرات والتحركات البشرية الكبرى فى التاريخ الإنسانى ، إلا أن العامل السابق لتبادل القيم المادية المرتبط مباشرة بحركة أجزاء مادية إنسانية مباشرة [قوافل - رفود - مناديب - جيوش - رسل ... إلخ] يلعب دورا يوازى العوامل السابقة مجتمعة فى تحديد مسارات ومجالات وأهداف لتلك التحركات . وذلك يوضح لماذا بالتحديد كانت النطاقات الجغرافية للحضارات الزراعية هى مجال التحركات البشرية الأساسية ، وأن كل "استقرار ودمج زراعى" فى أى نطاق يصبح هو أيضا مكان جذب . [مثل موجات الهجرة الكبرى بين القرن ١٩ إلى القرن ١٢ ق . م : حيثية ، حورية ، أمورية ، كنعانية ، كاسية ، أترورية ، إغريقية ، كاشية ، كنعانية ، زلاكا ، ميتانية ، ...... إلخ] .

مع ملاحظة أن التحركات الكبرى يتخللها ويعقبها قدر لا بأس به من الحركة الداخلية لإعادة ترتيب الأمور - وترتيب البيت الجغرافى الداخلى . وحركة الألف الثانى قبل الميلاد كان من نتائجها الأساسية :-

١- استيعاب الفعل المركزى للحضارات الزراعية -- أى الزراعة - كنشاط مركزى للنوع .
٢- انصهار النمطين الرعوى - الحركى ، والرعوى - التبادلى فى نمط واحد انتقالى هو النمط الحركى - التبادلى الذى دشنته فتوحات الإسكندر ، وكانت خاتمته الحروب الصليبية .
٣- التحول الحادث والدائم والمستمر فى الأنماط الحياتية للجميع (خاصة الرعوية منها) - فى ظل الشروط الموضوعية [يلاحظ أنه رغم بداية ارتداء الملابس فى مصر والعراق فى الربع الأخير من الألف الرابع ق . م - نجد أن أوروبا اتخذت ذلك فى بداية الألف الأولى ق.م] .
٤- انتشار اللغات والكتابة واللهجات بحلول القرن الأول الميلادى [كإنجلترا مثلا التى انتظرت دمجها فى المجتمع العالمى - الذى تم على يد الرومان - لتعرف الطريق إلى هجائيتها] . كما أنجزت التحولات الصوتية الكبرى [بين القرن ٦ ، ١ ق . م وبين القرن ٦،٨ الميلاديين] .
٥- استيعاب التكوين المجتمعى على مستوى النوع .
٦- استيعاب العجلة - الحصان - القارب - الشراع .... إلخ **وانتشار التبادل على مستوى العالم القديم .**
٧- دمج وانصهار كافة جماعات العالم القديم فى مجتمع عالمى - جغرافى واحد .

كما يلاحظ أن التحول النهائى إلى النمط الحضارى الحركى تمحور حول :-

أ- أشغال المعادن .

ب- التحول فى أشكال وأساليب استخدام القيم المنتجة .
جـ- ارتباط الزراعة الأوروبية بـ"حركة وتحريك" الماء.
د- استخدام الفحم .
هـ- تطور كيفى فى أنماط الحياة [المأكل - الملبس - المأوى] .
خلال مرحلته الانتقالية من بدايته وأنماطه الأولى الحركية - التبادلية والتى انتقل فيها الفعل المركزى - ونطاق تأثيره - تدريجيا إلى المنطقة الأوروبية .

حوارات أخيرة :-
١- وصل تركيز القوة العضلية الإنسانية إلى نهاية حدية فى شكل العبيد واستخداماته النهائية فى أشغال المعادن ، والمناجم (خاصة الفحم) ، والزراعة .
٢- أصبح المجتمع هو شكل الوجود الاجتماعى الحدى بمظاهره المتعددة فى أوروبا الإقطاعية وآسيا ، وانتظرت أفريقيا إلى القرون المتأخرة من الألف الثانية بعد الميلاد وإلى حين دمجها النهائى داخل النوع .
ذلك الوجود المجتمعى الذى يتأسس على : نمط الحياة المشترك لفئاته المختلفة ، توحيد فى شروط الوجود اللامادى (علوم - فنون - عقائد - آداب...) ، الاعتماد النهائى على الفعل المركزى الزراعي كنشاط أساسى ومحور بقية نشاطات الجماعات المختلفة . شكل وأساليب إدارة الجماعة [يحضرنا فى هذا الصدد أن الإمبراطورية البيزنطية - "الدولة" الوحيدة التى صمدت واستمرت فى أوروبا لمدة ١٠٠٠ عام (رغم مرونة حدودها الجغرافية) ، إنما كانت لها تلك الأسبقية وذلك

الاستمرار ، لسرعتها وقدرتها فى استيعاب شكل وأساليب الإدارة من الحضارات القديمة - خاصة المصرية منها - فى الإدارة والضرائب - فى الوقت الذى بدأت أوروبا تخوض مخاضا عسيرا لتعبر عن ذلك من خلال وحداتها السياسية المعروفة حاليا بداية من القرن ١٧ م] . وأهم ما استند عليه هذا التكوين المجتمعى هو قدرة الجماعة (أى جماعة) على أن تكون نوعية ، ولها شكل - وظيفة .

٣- يجب التحذير من إسقاط مفاهيمنا ومعاييرنا المعاصرة - أو حتى الحديث منها - الخاصة بالحضارة الزراعية على الأشكال القديمة والما قبل تاريخية منها ؛ حتى لا تحدث بلبلة وخلط أوراق ، حيث إن تلك المعايير إنما بدأ فى استخدامها أساسا بداية من التاريخ المكتوب لمصر القديمة ، وبناء على وجهات نظر أوروبية .

٤- إن أكثر الأمور صعوبة فى التعامل مع الأحداث هو : كونها كما هائلا من مفردات مختلفة ترصد من زوايا وجوانب متنوعة، مما يعيق النظر إلى كلية الأحداث وعناصرها الجوهرية ، فمثلا نجد أنه من اليسير الحديث عن الحضارة الزراعية ومراحلها التاريخية بداية من عصر الكتابة فى منطاق كثيرة ، لكن الصعوبة الحقيقة تأتى من حتى مجرد محاولة استنتاج كيفية تشكلها على أسس حضارة جمع الغذاء التى كان دور "الوظيفة" المركزى فيها إنما هو : التركيز على الوجود المادى المباشر للنوع .

كذلك يحضرنا مثال آخر : ذلك التشكل الذى تم على أسس الحضارة الزراعية الذى انطلق منذ بداية الألف الثانى ق . م لنجد أنفسنا فى القرن الـ١٩ الميلادى فى صميم النمط

الحضارى الحركى عبر عمليات الصهر والدمج بين النمطين الرعوى – الحركى ، والرعوى – التبادلى داخل النسيج الزراعى [وذلك يذكرنا بمثال ذرات عنصرين مختلفين من الخصائص هما الأيدروجين والأكسجين ، ليكونا لنا موضوعا ماديا لا يشاركهما أى خاصية شكلية أو وظيفية هو الماء] . فمن العجلة والحصان وتوابعهما (الجمل والثور والفيل ... إلخ) فى تلك القرون المحيطة ببداية الألف الثانية ق .م إلى ذلك الاستخدام المكثف للمعادن (الماقبل كيمياء) فى ذلك الكم من الأسلحة والدروع والأدوات الأخرى – إلى الآلات المختلفة بداية من القرن ١٦ م .

٥- منذ ظهر الإنسان على سطح الأرض وهو "يصنع" الأدوات، وبالتالى فلست من أنصار استعمال "الحضارة الصناعية" للتدليل على نمط الحضارة السائد منذ بضعة قرون بسيطة تحديدا من القرن ١٧ م وحتى الآن وإلى مستقبل منظور – ولكن من أنصار استعمال تعبير "النمط الحضارى الحركى" استنادا إلى :

١- أن مفهوم الحركة ومعانيها المتنوعة هى محور الفعل المركزى الإنسانى .
٢- أنه منذ القرن الـ١٩ م تحديدا تتم عملية دمج وصهر لمختلف أجزاء وجماعات النوع داخل هذا النمط [بأشكال وأساليب ودرجات متنوعة] .
٣- التغير الحادث والمستمر فى مفهوم الوجود "المجتمعى" ، وأداة تنظيمه الحدية ، أى : "الدولة ".
٤- التغير النوعى فى شروط الوجود اللامادى للنوع [والذى لم يكتمل أو تتضح صورته بعد].

٥- أن كافة الأنماط السابقة تعاملت مع الموضوعات المادية بصفتها "شكل" . بينما النمط الحالى يتعامل معها بصفتها "شكل - وظيفة" أو "شكل وظيفى" وهو بصدد التحول فى اتجاه مختلف على فترة زمنية [لا نستطيع تحديدها] إلى التعامل على أساس "وظيفة - شكل "

البرمجة :-

نشدد مرة أخرى على أن التنوع فى الشكل والتوحد فى الوظائف المركزية الماقبل إنسانية أصبحت عند النوع الإنسانى "توحد فى الشكل" وتنوع فى الوظيفة [الفكر ، الأساليب ، الانماط ... إلخ] وتلك الخصوصية الإنسانية تمر بـ ٣ مراحل أساسية : مرحلة تكوين الشكل [التكوين المادى الجنينى] والذى يتضمن أيضا وظيفة ، ثم مرحلة التكوين المشترك [للشكل - وظيفة] خلال أعوامه الأولى [من الميلاد إلى عمر ٣ : ٥ سنوات] ، وأخيرا : مرحلة التكوين الوظيفى حتى أواسط العشرينات .

ويحدث بعد المرحلة الجنينية ما يمكن تسميته "بالبرمجة الإنسانية" ، حيث يتم تدريجيا برمجة جهاز الوظيفة المركزية "المخ" ، بداية من الأم وانتهاء بكافة الأشكال الاجتماعية التى تعمل على نقل الخبرات اللازمة لعملية البرمجة ، التى تسمح بالمقابل بما يمكن تسميته "بالبرمجة العامة للإنسان" ، فتشمل كافة أجهزة الجسم المختلفة وعملياته الفسيولوجية لتتلاءم وتتكيف مع البرمجة الوظيفية .

ويفضى ذلك إلى نوع من "برمجة" الفئات الاجتماعية المختلفة داخل تشكيلة معينة ، هى نفسها "مبرمجة" بأساليب

وأنماط معينة . [مما يسمح بالوصول فى لحظات معينة إلى بنيات اجتماعية محافظة ومقاومة للأساليب والأنماط الجديدة] . وتكرار سلوك معين ، أو مجموعة سلوكيات [داخل جماعة ما بصفتها جزءا من النوع] على فترات زمنية معقولة نسبيا [من وجهة تلك العمليات] يسمح إما بتثبيت العمليات الوراثية ، أو بتغييرها تماما أو جزئيا .

وهذا التغيير يعبر عنه بحدوث التطور داخل النوع – سواء بظهور أنواع جديدة أو حدوث تغيرات مهمة داخل النوع – أو حتى يكون لها تأثير معاكس لذلك بانقراض النوع نفسه . [إن حديث دارون الرئيسى حول تكيف وتأقلم الأنواع ، وبقاء الأصلح والأقوى ، إنما هو حديث فى جوهره عن العمليات السلوكية بالمعنى السابق].

إن عمليات التكرار – التغير للسلوك فى ارتباطها العملياتى بـ"برمجة" مختلف الوظائف [فسيولوجية أو عصبية] تسمح بالمرور المباشر إلى تعجيل الجينات الوراثية .[لعل أمثلة مثل الحصان والكلب من جانب ، والقمح والشعير من جانب آخر : تعبير بين على السلوك الناتج من فعل إنسانى تجاه تلك الأنواع على فترات زمنية طويلة نسبيا عن تأثير تلك العمليات على تطور الإنسان ذاته ، كما أن الهندسة الوراثية ، تستخدم التقنيات الحديثة فى التعجيل بذلك ليتم فى أقصر فترة زمنية ممكنة] وتتضح تلك العمليات بصور مختلفة ومعايير مختلفة فى الطرق التى تتجاوب بها الأبنية والفئات الاجتماعية للأساليب والأنماط سواء الغريبة عنهم أو الوافدة والمتطورة .

وتتميز الخصوصية الإنسانية كذلك عن كافة الأشكال الماقبل إنسانية ، فإن شروط النوع الإنسانى [كفرد أو جماعة]

هي حصيلة نوعية لـ٣ أشكال من شروط الوجود المختلفة نوعيا في صورها ومعاييرها ، وهي شروط الوجود المادى [غذاء ، مأوى ، ملبس ، جنس ...] ، شروط وجود اجتماعية ، وأخيرا : شروط وجود وظيفية (أو لا مادية) [فنون ، عقائد ، آداب ، علوم ، خبرة ، .... إلخ] . واختلال إحدى تلك الشروط أو أكثر ينعكس فى اختلال موازى على مستوى الفرد – أو الجماعة – او المجتمع . قد يتخذ شكلا حديا نهائيا فى نهاية تلك الأفراد – أو الجماعات [سواء من الداخل – أو من الخارج] . ونود الانتباه قبل أن يأخذنا الحديث إلى مواضيع أخرى أن المجموع الفردى على مستوى النوع والذى يشكل قممه ويعبر عن مسيرته التطورية ، هم عموما أفراد غير ممكن – بالمعانى السابقة – "برمجتهم" ، إنهم يستطيعوا تلقى كافة الخبرات السابقة والحاضرة ، لكن لديهم القدرة "الوظيفية" على إعادة "البرمجة الذاتية" ، خاصة للأساليب ، حتى يتمكنوا من استخدام كل ذلك ، لتقديم الأفكار والوسائل الجديدة ، التى تسمح بحدوث التطور بعد استيعابها المتدرج والنامى من قبل الجماعة وتحولها إلى مجموعة عمليات سلوكية . ولأن عملية التطور هى كيفية من مرحلة إلى آخرى ، فإن هذا يسبب درجة كبيرة من الارتباك لفهم مجموع العمليات الانتقالية بين المراحل المختلفة ، كما يسبب قدرا هائلا من الصعوبات الخاصة بالتنبؤ بالمراحل التالية – أو المستقبل بوجه عام تحديدا ، فإن كافة المفكرين العظام فى تاريخنا الإنسانى اعتبروا أن توقعاتهم المستقبلية هى أمور مطلقة ، ولعب مريدهم دورا أساسيا فى تعميق وتأصيل ذلك المنهج .

إن القيمة الأساسية فى عمل هؤلاء الأفراد يتمثل فى كونهم حاولوا – من خلال شروطهم الموضوعية – التعرف

على الحركة العامة لتاريخ الإنسان ، لفهم الحاضر ، وتقديم المستقبل الأفضل ، ولعب عنصران مهمان دورا رئيسيا فى تأصيل تلك النظرة المطلقة لتوقعات التطور : عنصر المبادئ الأخلاقية الكبرى والعامة ، وعنصر المعايير الكمية والنظرة التراكمية لتاريخ البشرية . [إن أشياء مثل القياس الكمى للزمن ، والحركة المستقيمة للأشعة الضوئية ، وتعاقب الأحداث التاريخية، والعلم التجريدى الأول (الرياضيات) ، وأسلوب التعامل مع الأحداث بالظواهر ذات الصورة والشكل الدورى ... إلخ - لعبت دورا مهما فى استقرار مفهوم التطور الكمى].

إن عملية "الاستيعاب - الانطلاق" يمكن أن تشكل مدخلا أساسيا لفهم الاتجاه العام لحركة التاريخ ، وتطور الحضارة الإنسانية ، ونمو واندثار الأنماط المختلفة ، والتى تقوم على منطق ورؤية مختلفة عن فكرة "الصراع" الماركسى - الهيجلى، أو فكرة "التحدى - الاستجابة" لـ توينبى، والأفكار "الأزلية" الميتافيزيقية - وأحد أركانها الأساسية هو التفاعل والانصهار بين الجماعات والأنماط المختلفة .

ولأن النوع - أى نوع - لا يستطيع إلا أن يسلك سلوكا عاما وشاملا ، فإن تلك الخاصة تحديدا هى التى سمحت بتلك البدايات المشتركة للأنماط الزراعية - أو الرعوية المختلفة ، رغم الفواصل المكانية - أو الزمانية ، كما يعود الفضل إليها فى ذلك السلوك العام الذى يأخذ به النوع كل فترة زمنية كافية نسبيا بتفاعل كافة الأساليب الداخلية . ولكون الإنسان مادة فاعلة حتى بضع عشرات من السنين [فى طريقه إلى أن يتحول إلى مادة مفكرة] ، فإن كل عملية "استيعاب - انطلاق" وكل مرحلة أظهرت ذلك الكم الهائل من الصراعات والحروب والانهيارات،

كتعبير فج عن تلك "الفاعلية" الإنسانية ، والتى تشمل أيضا إعادة الترتيب دوما لموضوعات النوع وبيته الداخلى ، والإمبراطوريات التاريخية فى إحدى معانيها المهمة - عبرت عن ذلك الدمج للجماعات المختلفة والأساليب المتنوعة ، وكأمثلة فقط :-

١- الإمبراطورية المصرية وتوابعها [آشورية ، حيثية ، فارسية ..] - لدمج الهضبة الإيرانية والهلال الخصيب وحوض النيل الأعلى .

٢- إمبراطورية الإسكندر وتابعتها الرومانية - دمجت المنطقة الجغرافية من غرب الهند وحوض المتوسط إلى الجزيرة البريطانية .

٣- الإمبراطورية الصينية - دمجت جنوب شرق آسيا واتصلت بالساحل الشرقى لأفريقيا من خلال وساطة السواحل الهندية والعربية .

٤- الإمبراطورية المغولية وتوابعها [إلى العثمانية] - دمجت آسيا الجنوبية والوسطى والمنطقة المتوسطية الشرقية وشرق أوروبا .

٥- الإمبراطوريات الأوروبية [المعروفة تجاوزا بالاستعمار] - دمجت النوع على مستوى قاراته ومناطقه المأهولة سكانيا ، والصالحة - فى ظل شروط تلك المرحلة - للسكن الإنسانى .

- [يمكن ملاحظة إمبراطوريات أخرى مثل العربية (الإسلامية) ، البيزنطية ، الكارولنجية ، والانديز ، الروسية ، المالية ، الكونغولية ...... إلخ] .

وتلعب العوامل والأدوت التقنية أدوارا مهمة وأساسية ومباشرة فى ذلك ، كذلك أساليب الإنتاج الأكثر تطورا والتى تستوعب الأساليب الأدنى . كما يمكن أن نتلمس – بسهولة – التأثير المهم لأدوات بعينها . وبهذا المعنى يمكن أن نلاحظ دور السيارة فى تكوين أوروبا الحديثة ، والسكك الحديدية فى تكوين روسيا والولايات المتحدة ، والسفن والطائرات فى دمج القارات. إن الآلة البخارية وآلة الاحتراق الداخلى ، وكافة تداعياتهم من السيارة إلى الطائرة ومن إدارة "الحاكى" إلى المناجم ورفع الماء، وهذا التنوع الهائل فى الأشكال والأدوات الميكانيكية ، إنما فقط شكلت جسرا انتقاليا بين الإنسان كمادة فاعلة ، والإنسان كمادة مفكرة – تلعب فيه الكهرباء وتداعياتها الركن الأساسى لهذا التطور .

إنه ، بغض النظر عن الشوشرة الفكرية ولخبطة الأوراق التى حجبت إلى حد كبير رؤية السلوك العام للنوع ووحدة حركته من مثال بسيط مباشر فى المجال الإنسانى : الأشعار والملاحم الهوميرية ، المزامير والأسفار اليهودية ، على نفس المنوال سنجد الأشعار والملاحم السنسكريتية ، وقبلهم بعشرات القرون كانت الملاحم العراقية القديمة الجلجاميشية ، وقبل ذلك بكثير الملاحم الأوزيرية وأحدثها نشيد إخناتون .

من ناحية أخرى ، فإن المزج بين القوة العضلية وقوة دفع الهواء المباشر والمضغوط شكلا أسس المرحلة الانتقالية بين العضل والآلة .

واستيعاب شبكات الرى والصرف للحضارة الزراعية هو أساس المشاريع الكبرى لقنوات المياه وطرق الحضارات الإغريقية والرومانية والأوروبية ، والعجل المائى لم يكن فقط

أسلوبا جديدا فـي الـرى الزراعـى ، وإنمـا كـان العـامل الحقيقـى الذى قامت عليه الحواضر الأوروبية .

إن الخبرة المتراكمـة علـى الأدوات الحجريـة - مهمـا كانت صورها البدائية - هى رخصة المرور لـلأدوات الفخاريـة الأسـاس : المـادى الحقيقـى للمسكن والمـأوى وأعمـال الغـزل والنسيج الأولى ، بل كـانت أسسـها الجانبيـة (الحـرق والصـهر) هى أساس شغل المعادن والكيمياء .

وكانت فلكية بـابل والتقويم المصـرى همـا أسسـا علـوم الفلك العربى والأوربى فيما بعد . إن ما نجهله - بالفعل - ليس المنجزات القديمة ، بل الأساليب والطـرق والمنهـج المسـتخدم و التكنيك المطبق . يتوازى ذلك الجهل - بشكل آخر ، ومن جانب آخر - مع فونطيقيا اللغة وصوتياتهـا القديمـة والتـى تعتـبر أهـم مفـاتيح فهـم العمليـات الفكريـة المختلفـة وأسـاليب الوظيفـة الإنسانية.

لقد عانينا فى منطقتنا ، خاصة فى مصر ، من تصدعين تاريخيين لعبا دورا مهما إلى جانب كافـة العوامـل الأخـرى فـى إحـداث هـذا الكـم الهـائل من البلبلـة الفكريـة : الأول علـى يـد الإغريـق ، والثـانى علـى يـد الغـرب . وكـان التـأثير الأوربـى الحديث امتدادا - بمعنى ما - لهذين التصدعين.

الجزء الثالث

حديث حول الوضع الراهن

مدخل :-

التمرين التالى :- س٢ - س٢ = س٢ - س٢

(س - س) (س + س) = (س - س) س

س + س = س

٢ س = س

١ = ٢

يقودنا إلى مساواة لا معقولة ، الخطأ لا يكمن فى خطوات الحل وتسلسلها المنطقى ، وإنما فى منطق الفرضية ذاتها . ورفض التمرين ونتيجته النهائية تفترض رفضا للمنطق ذاته ، وليس لخطوات الحل .

والحديث حول الوضع الراهن يتطلب - بالمثل - أسسا منطقية مختلفة ، وهو ما حاولنا الوصول إليه خلال الجزء الأول والثانى من هذه المساهمة ، والتى فى مقدمتها وحدة النوع (حضاريا وسلوكيا)، وأن تطوره كيفى (وليس مستقيما أو حلزونيا) ، وأن المعايير الكمية وحدها لا تشكل المنهج السليم لفهم الأحداث فى ماضيها وحاضرها ، كما أن دمج وصهر الجماعات المختلفة داخل منظومة عالمية موحدة وفى داخل الأساليب الأكثر تطورا هى التى تتضمن معانى الجبرية والحتمية التاريخية ، والمتخلفين عنها يتحولون إلى متحف بشرى حى ، أو يدمرون بفعل عوامل داخلية أو خارجية .

والتوصيف والتصنيف السياسى المدلول (من نوع : تبعية ، استعمار ، مباحثى ... إلخ) لا يجدى نفعا فى فهم الأحداث ، لكنه قد يفيد بشكل سطحى فى التكتيكات والمناورات

الانتخابية ، خاصة أن السياسة بمفهومها السائد "كفن الممكنات" شكلت منظورا مخادعا ومغلوطا ، وكان الأجدر أن نتعامل معها بصفتها "فن المصالح" ، وهى بهذه الصفة تسهل علينا فهم تبدل الأدوار ، وتغير المسارات ، وتشابك العلاقات بين الدول والجماعات ، حتى داخل نفس التشكيلة الاجتماعية ، كما أنها لا تمارس إلا برجماتيا ، رغم سرابية غلافها المكون من الأخلاق والمبادئ الكبرى ، مما ينشأ عنه كثير من الوهم والغموض .

إن السياسة فى جوهرها عملية "برجماتيكية" رغم المحاولات المستميتة لعمل مرجعية أخلاقية – سلوكية لها .

التيار السياسى الإسلامى :-

خلال القرنين الـ١٩، والـ٢٠ ، يمكن رصد ٣ محطات رئيسية فى حركة ومسار أحد التيارات السياسية وهو التيار السياسى الإسلامى [وليس كما يقال تيار الإسلام السياسى] .

أ- **محطة "محاولات تحديث أسلمة المجتمع "**، ورمزها جمال الدين الأفغانى [ومجالها يمتد من الوهابية حتى محمد عبده مرورا بالطهطاوى والكواكبى ... إلخ] . المتزامنة مع محاولات التحديث الأولى لبعض هياكل المجتمع المصرى اقتصاديا واجتماعيا ، بداية من محمد على وانتهاء بـ إسماعيل ، ودوليا كانت تعنى إعادة دمج المنطقة عموما ومصر خاصة فى المنظومة الدولية ، على أسس : "زراعة – صناعة" ، وتوزيع العمل الدولى ، المبنى على تركيبة الحديد والصلب والنسيج ، وانطلاق مفاهيم "الآلة" ، "المحرك" ، وإدماج القارات الست فى إمبراطورية أوروبية ، كما كان لها تعبيرات سياسية أخرى فى مصر بدأت بالحركة العرابية وانتهت بثورة ١٩١٩ ، كما تحرك

خلالها العالم نحو استقرار وحداته "السياسية" داخل إطار "القومية" ، بداية من استقرار الأوضاع الفرنسية ، وانتهاء بالحرب العالمية الأولى ، مرورا بالوحدات السياسية الأوروبية والأسيوية والأمريكية فى ظهورها "كدول" و "قوميات ".

ب- **مرحلة التعبير السياسى** ، حسن البنا والإخوان المسلمين ، المواكبة لتغير فعلى حادث فى بعض هياكل المجتمع الاقتصادى - الاجتماعية [طلعت حرب ، بنك مصر ، اندماج مصر بشكل مختلف فى ترانزيت التجارة الدولية من خلال قناة السويس ، التغير الديموغرافى ، مشاكل استيعاب الهيكل الاقتصادى - الاجتماعى للزراعة المصرية للأساليب المتطورة ، التغير الحادث فى أنماط الحياة وأساليب المعيشة ، صعود ونمو الطبقة المتوسطة ... إلخ] . وعلى مستوى العالم، كان التغير حادث على مستوى الصناعات الرئيسية ، وإعادة توزيع الصناعات الأخرى [كالنسيج مثلا مقابل السيارة والطائرة] ، التحول فى مسألة الطاقة من الطاقة الحرارية المباشرة للفحم ، إلى محطاته الحرارية و "البترول" . وكانت الحرب العالمية الثانية : [بكل مآسيها الإنسانية] هى التعبير النشط عن النهاية النموذجية للنمط الحضارى الحركى [المعروف بـ الحضارة الصناعية (الجزء الثانى)] ، وليست النهاية الحدية التى ترتبط بقدرة النوع فى مجموعه على استيعاب أساليب النمط المختلفة .

جـ- المحطة الممتدة من بداية السبعينات ، "خصخصة وعالمية وثروية التيار" تماشيا مع شعارات "حقوق الإنسان" ، "الخصخصة" ، وتعبيرا مباشرا عن البترودولار ، وغير مباشر عن التغير "الهيكلى" فى أسس البناء الاقتصادى - الاجتماعى" المصرى والإقليمى والعالمى مثل :

١- نمو السوق المصرى باتجاه مجموعة صناعية محددة : السياحة ، البناء ، التجميعية [الغذائية ، أدوات منزلية ، سيارات ، أدوات زراعية وطلمبات ..] ... إلخ .

٢- عدم الانخراط المتكامل للوحدات الاجتماعية فى عملية التغير ، مع استفحال أزمة الزيادة السكانية .

٣- تغير مكونات الدخل القومى المصرى ، وزيادة نسبة الكم غير الإنتاجى فيه . [السياحة ، خاصة البترودولارية ، تحويلات العاملين فى الجزيرة العربية ، قناة السويس بصفتها رسوم ترانزيت ، قطاع البترول ..] . بالإضافة إلى أحد أهم وأخطر عنصر ، وهو : المضاربات العقارية .

٤- التهميش الدائم لفئات اجتماعية ، وخضوعها لقوانين العرض والطلب ، والتغير الدائم فى هياكل الأجور والأسعار ومستويات الدخول ، إعادة توزيع الثروة ... إلخ .

هذا ، مع الأخذ بعين الاعتبار لكافة العوامل المحلية والإقليمية والدولية المؤثرة بدرجات مختلفة وأساليب متنوعة فى حركة المد والجزر لهذا التيار .

رغم ذلك ، يجدر بنا الإشارة إلى بعض العوامل الخاصة ، الحدية التأثير فى قدرة هذا التيار على العمل ، والأخطر على التلون :-

١- المرونة التكتيكية فى التحول بين العمل الدينى والسياسى ، والذى يجد أرضيته الممهدة من خلال : -

أ- الوجود الطبيعى لأقوى جهاز إعلامى منتشر أفقيا ورأسيا ، وفى كل شبر من الأرض المصرية ، والمتمتع بوضعية مقدسة تنأى به عن كافة أشكال الحديث والنقاش [حتى لو كان مصدرا للتهرب الضريبى أو الاستيلاء على أراضى

الدولة أو المضاربة فـي الأراضـي أو الحصـول علـى امتيـازات تتمثل فى مجانية الخدمات والمرافق ... إلخ] – أو – الجوامع والزوايا .

ب– الأرضيـة الدينيـة الخصبـة التـى يتمتـع بهـا الشـعب المصرى وشعوب المنطقة .

جـ– المؤسسات الدينية الرسمية وشبه الرسمية . والتـى تلعب فى كل لحظة دورا موازيا للسـلطة فـى المجتمـع ، خاصـة أنـه منوط بهـا – وبشكل تـاريخى – الوصايـة والقوامــة علــى أخــلاق وسلوكيات المجتمـع ، كمـا أن كتلتهـا الماديـة [مجمــوع أفرادها] من فئات اجتماعية معينة.

د– هو ، تقريبا ، التيـار السياسـى الوحيد المسموح لـه بالعمل محليا وإقليميا [تحت ستار وشـعار مكافحـة الشيوعية] . ولكونـه بمؤسسـاته المختلفـة جزءا عضويـا فـى تركيبـة الدولــة وهياكل السلطة ، مما دعم ونمى قدراته البرجماتيكية .

٢– إن كل توسع ونمو عملى لهذا التيار مرتبط بـ

أ– نمو الاتجاه الفاشى على المستوى العالمى .

ب– عالمية التعبير الاجتماعى الإنسانى .

جـ– ارتبـاطـه المباشـر ، العضـوى والمــالى ، بروابـط إقليمية ودولية .

د– أنه يمثل أحد أنواع الدفاع عن البقاء من قبـل الفئـات الاجتماعية الأكثر تخلفا على المستوى العالمى .

٣– أنه بعكس النظريات الاقتصادية أو العلمية .. إلـخ ، التـى تحتـاج فـى مناقشـتها إلـى قدر كبـير مـن الثقافـة والعلـم والمعرفة ، فإن الاستقطاب حول الأرضية الدينية ، خاصـة حـول المبادئ الكبرى التى لا يختلف حولها اثنان ، لهـى مـن السـهولة

بمكان ، وغير مطلوب لذلك بذل أى نوع من الجهد ، كما أنها توحى بقدر سطحى من المساواة الوهمية بين الأفراد ، والفئات تعويضا عن الفروق الاجتماعية أو الثقافية ، وتصبح مبررا هاما للانعزال والتقوقع والتحجر .

ويستطيع هذا التيار ، بسهولة ، أن يفتعل الكثير من القضايا الوهمية والمثيرة للجدل ، لكنها شديدة الفعالية فى قدرتها على تحجيم القدرات العقلية وتغييب الفكر لدى الفرد والمجموع ، لتضع الجميع فى قوالب وأطر محددة .

ومثال ذلك : هذا الجدل القديم - الجديد عن العلم والدين، الذى يطرحونه بـ ٣ أشكال : - المواجهة بينهما ، الانحياز لجانب الدين والاعتراف بالعلم لخدمته ، أو محاولات التوفيق والتلفيق بينهما . بينما الدين والعلم - من وجهة نظرنا - لا يتواجهان ، كما لا يتكاملان ، ولكن لهما الملامح المشتركة من كونهما : - حياديين ، أساسيين فى بناء التشكيلة الاجتماعية ، إطارا مرجعيا للنوع الإنسانى ، جزءا من شروط الإنسان الوظيفية والمادية ... إلخ .

فالمعرفة العلمية لتركيب الذرة تسمح بتوليد الكهرباء ، كما تسمح بالقنابل ، ومعرفة الله وإقامة الصلاة تجعلنا فى مفترن طرق إلى البناء أو الدمار .

إن المشكلة ، إذن ، ليست فى العلم أو الدين ، وإنما فى كيفية استخدامهما ، وتوظيفهما ، والقائمين عليهما ، والنتائج المترتبة على أساليب التطبيق .

كما يوجد وجه آخر للمسألة يتمثل فى الفئات الاجتماعية التى تعبر عنها الشعارات المختلفة ، والفروق واضحة جلية بين وحدة سياسية اجتماعية مصرية فى تجانسها الكامل ، ووحدة

سياسية اجتماعية سعودية – أو صومالية مازالت للتكوينات والأشكال القبلية دور مهم فى تكوينها المجتمعى .

ولأن التيار الإسلامى هو تيار سياسى ، فإنه يمكن ، وبسهولة ، أن نرصد الخصائص والسمات المشتركة بينه وبين تيارات سياسية أخرى ، ولنأخذ مثالا على ذلك تلك السمات المشتركة بين التيار الدينى واليسارى (بتنوعاتهما المختلفة) : –

– يكفران المجتمع (كل من وجهة نظره ، ولأسبابه ، وبأسلوبه) .

– يعبران عن مصالح ضيقة لبعض من فئات الطبقة المتوسطة .

– التشرذم ، التقوقع ، التصنيف والتوصيف ، التفسير ، هى خصائصهم الأساسية ، والتمدد والانكماش "الجماهيرى" عملية وقتية مرتبطة بشروط كلية ودولية ، أكثر منها اعتمادا على قدراتهم أو برامجهم .

– كلاهما يطرح حلولا نظرية وعملية من خارج المجتمع المصرى .

– يعتمدان الفاشية منهجا ، والعمل السرى والتآمرى سلوكا .

– الدوران فى حلقة مفرغة ، مركزها لعبتا "التدين" ، "الملكية ".

– التحول التدريجى والدائم للقيادات والكوادر إلى وسطاء محليين ، وتفريغ العمل العام من مضامينه ، وتحويل القضايا المختلفة والمبادئ إلى موضوع للرزق والارتزاق – أى إلى مهنة ، وإلى علة وجود مادى مباشر .

ومتابعة سلوكيات وأطروحات التيار السياسى الإسلامى تسمح لنا برصد برنامجه الذى يجرى عمليا تنفيذه بأساليب متنوعة ، دون الإفصاح المباشر عنه ، وذلك فى مواجهة برنامج المجتمع المدنى ، والجدول التالى يحمل لنا بعض الأمثلة : -

المجتمع المدنى	التيار السياسى الإسلامى
الصحوة القومية	الصحوة الإسلامية
الشرعية : الدستورية القانونية - المؤسساتية	الحاكمية لله - ولاية المشايخ
الاستثمار الصناعى والزراعى النشاط التجارى - الخصخصة	توظيف الأموال التجارى - إطلاق المفردات والمسميات الإسلامية على الأنشطة مثل البنك الإسلامى ، ملابس المحجبات .. إلخ
تنويع وتعميق أساليب العمل الاجتماعى (محاولات)	صيغة : مركب (الجامع - الحضانة - المستوصف)
قضايا الأزمة السكانية ، الطفولة، المرأة	الحجاب ، الأيتام ، المشردين ، الأمومة
تنمية التعليم والثقافة والفن	تكفير الثقافة والفن ، وحصر التعليم فى الأمور الدينية
محاولات نشر الثقافة العلمية والتفكير العقلى	قولبة اللغة فى إطار مجموعة محددة من الألفاظ ، والعمل على تسيدها . والتكفير
الديمقراطية والعمل السياسى	التنظيم التآمرى - العسكرة - الطاعة - توحيد الزى والمظهر - الغاشية - اختراق المؤسسات

إن تحجيم العقل المصرى ، وتغييبه ، أحد أهدافهم الأساسية ، والهجوم الدائم والمستمر على المرأة المصرية ، التى يتم ترويضها والاستيلاء عليها ، هى أهم أسلوب لهم فى

ترويض الوطن كله ، بالإضافة إلى الأساليب اللغوية للحوار ، والعلاقات الاجتماعية .

ولكن غابت عنهم نقطتان من سوء حظهم : **الأولى** : تتصل بعدم وجود صراع دينى أو مذهبى بين المجتمع فى مجموعه ، والدولة كممثل له (تاريخيا ، كانت الصراعات ذات الشكل الدينى تتم على أرضيات مختلفة بين المجتمع والدولة مثل: أوزيريس – رع ، الإخناتونية – الآمونية ، الآمونية – المسيحية ، المسيحية – الإسلام ، الشيعة – السنة ... إلخ) . **والثانية** : أن لكل دولة أيدولوجية تحكم بها ومنها ، وأيدولوجية الدولة المصرية –بالذات – كانت دائما دينية ، وحاليا وبالتحديد هى "إسلامية – سنة ".

وبالتالى ، فلا توجد أرضية لصراع ذى طابع دينى – أو مذهبى بين الدولة والمجتمع أو بعض فئاته . لكن تأثير البترو دولار السعودى خاصة والخليجى عامة ، بإضافة القيم الاجتماعية – الثقافية الوافدة منهم على يد العمالة المصرية المغتربة ، والإرهاب الفكرى ، والمصالح الإقليمية ، ومرونة الدولة ومؤسساتها المختلفة ، والشعارات البراقة – هى التى تساعد ذلك التيار على الاستمرار .

إن الحديث والنقاش الدينى – حتى يكون له مردود إنسانى ، فى إطار اللحظة ، والنوع – يجب أن يتم على أرضية إصلاح دينى حقيقى ، ينبع من حقائق الدين والإنسان والعصر ، والمبادئ التالية تصلح كمثال يصلح كبداية لحوار ونقاش إصلاحى وحقيقى :

١– القبول بـ المساواة القانونية بين الرجل والمرأة .

٢- القبول بـ حرية العبادة والتدين لكافة الأفراد والجماعات والشعوب .

٣- القبول بـ تنوع التشكيلات الاجتماعية ، والثقافات .

٤- القبول بـ التفكير العلمي وحرية التفكير العقلى .

٥- القبول بـ الأشكال والأساليب الحديثة اقتصاديا وسياسيا فى بناء المجتمعات .

٦- القبول بـ مبدأ تعديل الحدود الشرعية .

وذلك مشروط بأن تخرج الدولة من الحلقة الضيقة والصغيرة ، للتنافث اللاهث مع هذا التيار وغيره ، فى كون أى منهما أكثر "أسلمة" من الآخر .

وإذا أسئ أو تم ابتذال الطرح السابق (كما جرت العادة حتى الآن) ، فلن يفضى بنا الطريق إلا إلى مزيد من المشاكل .

النظام الدولى

إن إعادة دمج التشكيلات الاجتماعية المختلفة بشكل طوعى أو جبرى داخل النمط الحضارى السائد للنوع ، والذى يشمل داخله الأشكال الأقل تطورا - يبدأ من تغير أساليب الحياة والمعيشة ، للفئات القيادية ، والاحتكاك المادى المباشر بين الجماعات الإنسانية ، ثم يمتد ذلك إلى استيعاب الأساليب المنطورة . بعدها ، تدخل التشكيلة فى تعديل مجمل شروطها [المادية - الوظيفية - الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية].

وكان اكتشاف الكهرباء هو الأساس الموضوعى الذى دفع بالنمط الحضارى الحركى (الحضارة الصناعية) إلى نهاية حدية نموذجية ، كما غير كيفى ، ليس فقط أساليب الحياة

والمعيشة ، ولكن أيضا المفاهيم والأفكار ، ووضع النوع فى مجموعه في مرحلة انتقال حضارى .

والصناعات الإلكترونية (أحد مجالاتها التطبيقية) هى حصان طراودة الذى تسلل إلى نسيج حياتنا ؛ ليغير فى هدوء الأساليب والأنماط والسلوك : بداية من وسائل الإنتاج ، وانتهاء بالوظيفة الإنسانية .

وإعادة الهيكلة الكمية والكيفية للنوع وشروط وجوده تمر من بوابة إعادة هيكلة الاقتصاد العالمى ، وبالتالى : الأساليب والوسائل التى تمس كل المؤسسات والمجالات ، ومن ثم : المفاهيم والأفكار .

يعتمد ذلك على إعادة توزيع وتخصيص العمل الدولى ، ومناطقه ، وموضوعاته ، كذلك إعادة توزيع الثروة ، وبشكل مواز إعادة دمج التشكيلات الاجتماعية على تلك الأسس الجديدة، وإحداث التغييرات المطلوبة فى المؤسسات المختلفة (اقتصادية – اجتماعية – سياسية) كذلك مهامها وأدوارها .

ويمكن رصد الملامح الأساسية فى النقاط التالية : –

١- التغير النوعى الحادث فى أساليب إنتاج مختلف شروط وجود النوع .

٢- التغير الكمى والنوعى فى المواد المنتجة .

٣- التغير الكمى والنوعى فى أشكال وطرق انتقال أنماط الحياة وأساليب المعيشة .

٤- النمو الديموغرافى الهائل ، مشاكل التوزيع السكانى والاجتماعى ، وتنقل الأفراد والجماعات .

٥- التنوع الثقافى بين التشكيلات وفى داخلها .

٦- التغير الكمى والنوعى الحادث فى أساليب النقل ، والاتصال، والتعبير ، ونقل الخبرة والمعرفة .
٧- التغير النوعى الحادث فى المفاهيم والأفكار فى كل الموضوعات والمجالات .
٨- توزيع وتخصيص العمل دوليا وفق المجموعات التالية : -

(أ) المجموعة الرئيسية :-

الصناعات الإلكترونية (معها الاتصال ، الإعلام ، المواصلات ، أسس الإنتاج) أبحاث الفضاء (معها شئون الطيران) - الطاقات الجديدة والمتجددة والشمسية والذرية - أعماق البحار والمحيطات (معها أبحاث الغذاء ، الصيد ، النقل المائى ...) - الصناعات البيولوجية [معها الهندسة الوراثية ، الطبية ، الزراعية ، الحيوانية ، ..] - الصناعات الكيميائية (بمعنى المواد المخلقة والجديدة ، تطوير التقنيات ، وأساليب التعدين والمسبوكات ...) .

(ب) المجموعة التقليدية :-

الحديد والصلب (وتوابعه) - الصناعات التجميعية (محركات ، سيارات ، أدوات ميكانيكية وكهربائية ومنزلية ، غذائية ، كيماوية ...) - الغزل والنسيج (وتوابعه) - مواد البناء - الأخشاب والجلود - البتروكيماويات - بعض الصناعات التحويلية .

(ج) المجموعة الخدمية :-

سياحة وفنادق ومطاعم ، سكن ومرافق وطرق ، تأمينات ، صحة ، تجارة ... إلخ .

(د) المجموعة الوظيفية :-

فنون ، آداب ، علم ، تعلم ، خبرة ، عقائد .

(هـ) مجموعة المواد الخام :-

طاقة (فحم ، بترول ، غاز ، مساقط مياه ...) – خامات معدنية ، زجاجية ، أدوات ، موصلات – أخشاب – جلود – محاصيل رئيسية (قمح ، شعير ، قطن ، كتان ، قصب سكر ، بن ، كاكاو ، رز ، ... إلخ) .

(و) المجموعة الحرفية :-

أنشطة الخدمات الحرفية من الأنماط الأقل تطورا ، أشكال الصيانة والمتابعة (خاصة فى الدول النامية) ، مجموعات ما يسمى بالصناعات التقليدية ... إلخ .

تلك الملامح المميزة للمرحلة الانتقالية تتطلب عملا هاما وموازيا لها يتعلق بـ : –

١– إعادة النظر فى الهياكل القانونية الدولية والإقليمية والمحلية .

٢– إعادة النظر في المؤسسات القائمة ودورها ومهامها.

٣– إعادة النظر فى مختلف العلاقات بين التشكيلات الاجتماعية وفى داخلها .

٤– إعادة بناء منظومات القيم والمفاهيم .

أى - باختصار شديد وليس مخل - : إعادة تنظيم النوع بمختلف تشكيلاته وفئاته على أسس ومفاهيم جديدة ، بل لو تطلب الأمر على أسس سياسية جغرافية جديدة .

وكأمثلة برجماتية مباشرة نجد : -

١- الرغبة المتزايدة فى إعادة تنظيم المؤسسات الدولية ، الرغبة فى توسيع مجلس الأمن ليشمل دولا أخرى كأعضاء دائمين مثل: اليابان ، الهند ، ألمانيا ، مصر ، البرازيل .

٢- تكوين التكتلات الاقتصادية الكبرى (أوروبية - أمريكية - أسيوية - شرق أوسطية - باسيفيكية ...) .

٣-إعادة صياغة المؤسسات العسكرية والأمنية وأدوارها محليا وإقليميا ودوليا .

٤- اتفاقية الجات وتداعياتها ، وهى مؤشر شديد التواضع ، على تحرير التجارة (والأهم هو تنقل الأفراد والأموال فى سوق عالمى موحد) .

٥- انهيار التشكيلات التى تعانى خللا فى شروطها (الصومال - بوروندى - أفغانستان - المكسيك - يوغسلافيا - طاجكستان - الجزائر .... إلخ) .

٦- إعادة دمج النمور الأسيوين على أسس جديدة وصعود آخرين مثل أندونيسيا .

٧- التغير الحادث فى الأساليب ضمن ما يسمى بـ "المصالح المشتركة ".

وإذا كانت طبيعة وأساليب إنتاج النوع حتى منتصف هذا القرن تفرض قدرا عاليا من شروط المركزة التقنية (أساسا) ، فإن استيعاب الحديد والصلب والآلة والميكنة والمحرك احتاج فى الأنماط الأقل تطورا إلى درجة أعلى من التركيز انعكست

فى ظواهـر علـى مستوى النـوع مثـل : – الدولـة – القوميـة – التعليم – شروط السكن – وظائف الإدارة والسلطة والأمن .

بل تعدت ذلك إلى المعايير الكمية للعامل وقوة العمـل ، وارتكز كل ذلك على إنتاج : "وسائل الإنتـاج" . ووجـدت بعض التشكيلات سبيلها إلى ذلـك مـن خـلال "الاشتراكية" ، بدايـة مـن الاشتراكية – القوميـة الألمانيـة ، إلـى الدولـة – الاشتراكية فـى العالم الثالث ، مرورا بـ الاشـتراكية – السـوفيتية (بغـض النظـر عن بعض المكاسب اللحظية والشكلية هنـا وهنـاك ، وموضـوع القطاع العام) .

اليوم يختلف الموقف ، الأسـاس يصبـح : إنتـاج "وسـائل وسائل الإنتاج" ، وسوق العمـل يـأخذ بالمعـايير الكيفيـة والكميـة معا، وفقدت عملية المركزة كثيرا مـن مبررات وجودهـا ، كمـا ألغت تكنولوجيا النقل والاتصال فوارق المكان بالمعنى الحرفـى، كما اتضحت بصورة جلية الفوارق بين الصناعات ذات الثوابـت المكانية (مثـل الصناعـات الاستخراجية) ، وصناعـات لا تتمـيز بهـا، ولكنهـا تتطلـب مسـتوى معينـا مـن الخدمـات أو البنيـة الأساسية .

والتغير الفعلى بـدأ مـع نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة ، وكـانت الستينات مؤشـرا زمنيـا عليه ، بـدأت بإقالـة ديجـول وحركات الشباب الأوروبى والأمريكى ، وانتهت عمليا برئاسة بوش وتفكيك الاتحاد السوفيتى (مـن ضمـن معانيهـا الأساسـية : انهيار سلطة وحكم جيل الحرب العالمية الثانية) .

كما نود أن نسجل ملاحظة أساسية خاصة بشكل التعبـير السياسى ، فرغم أن الحضارة الزراعية عامة ، ومصر خاصـة ، عبرت عن ظواهر الدولة والقومية بشكل مبكر ، فحين انتظـرت

التشكيلات الأوروبية والأمريكية إلى بضع عشرات السنين وإلى وقت قريب لتعبر سياسيا عن ذلك ، كما ساهم فى بلورتها النهائية النمط الحضارى الحركى ، إلا أنها تجاوزت ذلك إلى مفهوم المؤسسة ، حتى على مستوى الإدارة ، بينما تأخرت المؤسسات الأمنية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لتعكس هى الأخرى تلك المفاهيم المتنامية (يلاحظ أنه عند نهاية الحرب العالمية الأولى كان الوفد فى مصر ، المؤتمر فى الهند ، البلاشفة فى روسيا كتعبير سياسى مرادف لعالمية الأساليب والنمط) . كما جسدت الفترة من ١٩٧٣ (حرب أكتوبر) إلى ١٩٧٥ (حرب فيتنام) نهاية مفاهيم المؤسسة العسكرية التقليدية .

وتجتاز الأنماط الغربية منذ الثمانينات مرحلة انتقالية أخرى بين مفاهيم المؤسسة ، ومفاهيم المشروع Enterprise- (الذى يعكس ضمنيا مفاهيم مثل : الشركات المتعددة الجنسيات ، الإعلام الدولى ، المنظمات الدولية المالية ....) .

ويجب أن نذكر ونشدد على أن : النوع الإنسانى لا يستطع إلا أن يسلك سلوكا نوعيا ، ولا يتغير إلا بطرق برجماتية (مع عدم ضياع الأهداف والرؤية الاستراتيجية) .

كما أن النظام - أثناء عملية إعادة الهيكلة - يجتاز حالة من السيولة ، تكون دائما للاتجاهات الفاشية الدينية والعرقية **والمبادرة فى التعبير ؛ لاتصالها المباشر والعضوى بالفئات** الأكثر تهميشا داخل النظام ، وتعبيرا عن الأبنية الأكثر تخلفا والأكثر تعرضا لمعاول الهدم والبناء ، وينعكس ذلك فى أمثلة مباشرة مثل :

عالمية الظاهرة - الصراعات الموجهة Under - Control انتقال بؤر الصراع إلى داخل التشكيلات

نفسها (تحت العناوين الدينية والعرقية بدلا عن القومية والطبقية) ..... إلخ ، وهى تدخل فى إطار التعبير عن النظام والهياكل والمصالح القديمة والجيل الحاكم الذى يمثلها .

وأثناء التغير عن طريق "الانتخاب الحر" بأشكال وأساليب إنسانية ، يجرى تدريجيا تحديد ملامح وأطر المستقبل ، الذى لا بد من العبور إليه ، وهى عملية تتم - للأسف - حتى الآن بطريقة غير واعية وغير عقلانية .

إن هزيمة الاتجاهات الفاشية الدينية والعرقية حتمية وتاريخية ، لكنها يمكن أن تحدث فى اتجاهين : إما هزيمة إيجابية تسمح بالانطلاق والعبور ، أو هزيمة سلبية تقود التشكيلات إلى حلقات الدمار الذاتى .

الشئون المصرية :-

كثيرة ومتنوعة ، بعضها بطول تاريخها الألفى ، وبعضها جديد فى معطياته ، بعضها محلى وآخر إقليمى ودولى، لكن التشكيلة الاجتماعية المصرية هى جزء من النوع ، شئونها مهما كان طابعها الخارجى شديد المصرية ، إلا أنه جزء من شئون النوع "بطريقة مصرية" ، والمشروع الحضارى المصرى لا يكون ، إلا إذا كان إقليميا وعالميا فى آن واحد .

من أمثلة ملامح الشئون المصرية حاليا ودون ترتيب :

١- التغير الحادث فى الهياكل الاقتصادية - الاجتماعية ، والمؤسسات المختلفة .

٢- التغير الحادث فى مصادر الدخل القومى المصرى .

٣- مسألة السلطة : طبيعتها ، عناصرها ، وصفها ، أساليب عملها .

٤- مسألة الدولة : طبيعتها ، عناصرها ، امتيازاتها ، علاقتها بالسلطة .... إلخ .
٥- ابتلاع الدولة لكل سبل وأشكال التعبير ومختلف الأساليب ، كي تكون جزءا منها وبها . وتسيد منظومات قيم الموظفين المتخلفة من قيم العمل الزراعي .
٦- أساليب وأشكال وآليات العمل السياسي (القائم على الشللية ، التراتب الوظيفي ، التوصيف والتصنيف ، المعايير المادية الأمنية التقليدية ، عدم ترسيخ تقاليد له .... إلخ (
٧- الانفجار السكاني ، والتوزيع السكاني ، والسلم العمرى .... إلخ ، ومشاكل تنقل الأفراد .
٨- عدم القدرة على استيعاب المرحلة الانتقالية التي تجتازها ، والطريقة "الخراجية - الضريبية" ، التي تمارس بها الدولة وجودها ، غير مجدية .
٩- مفاهيم وأسس الأمن القومي والمصالح العليا ، وأدوار مختلف المؤسسات الأمنية .
١٠- جيل الحرب العالمية الذي يمسك بمقاليد الأمور ، وإغلاق كافة السبل مع / ورغم الحراك الاجتماعي .

ولعل أشد ما نعانيه هو خلط المفاهيم والأفكار ، ولنا في الديمقراطية الغربية نموذج على ذلك ، فرغم معانيها السياسية ، إلا أنها تقوم على محورين أساسيين : الأول هو تكافؤ الفرص بين الأفراد في كافة المجالات بطريقة تسمح للعناصر ذات الكفاءة بالمشاركة فعليا في المجالات المختلفة ، والثاني هو القدرة على تداول السلطة في إطار النظام وتحت حماية المؤسسات الأمنية .

كما استطاعت الأنماط الغربية ترسيخ منظومات القيم المتصلة بالعمل ، الإنتاج ، العلم ، المؤسسات ، المجتمع المدنى ... إلخ (هذا لا يعنى أنه لا توجد بها سلبيات).

بينما نحن وباستخدام منظومات قيم محلية (زراعية ومصطبيية ورعوية) ، عاجزون عن التغيير والإبداع . وتستخدم الدولة المصرية كل قوتها فى تسييد مجموعة شعارات تخدم بشكل أساسى وجودها الذاتى المباشر والآنى (شعارات من نوع حق يراد بع باطل) ، وأن تكون دائما بديلا عن المجتمع .

إن للدولة المصرية قدرة تاريخية – تكاد تكون عجائبية ، وراثية – على التلون ، فخلال حكم أسرة محمد على وحتى ١٩٥٢ استطاعت تدوير الحكومة والإدارة العليا ، داخل الفئات الحاكمة (المنغلقة) تحت رعاية القصر وعلى أرضية دولية (إنجليزية – فرنسية أساسا) .

وكانت الناصرية تعبيرا فجا عن "توليفة اشتراكية" من الفاشية القومية "الهتلرية" والفاشية الدينية (الإخوانية) ، رغم أن إنجازات الناصرية شديدة الضآلة إلى جانب محمد على قديما ، وفترة مبارك حديثا ، وعكس ذلك الإعلام الناصرى بشكل ممتاز ، حيث همش المجتمع لصالح الدولة ، ثم همش الدولة لصالح الزعيم الملهم . (الغريب أن نفس الأشخاص مستمرون طيلة العقود الـ ٥ فى كل مجال ومكان وتبعا لكل سياسة وشعار). ونستطيع أن نلمس بسهولة أن الناصرية وإعلامها هى المسئول الأول والحاضن الأول والشريك الأول للفاشية الدينية من خلال القمع الأمنى ، ومجموعة القيم والسياسات التى عمل على تسريبها إلى المجتمع المصرى ومنظومته العقلية والفكرية مثل :

١- التفريق العمد بين "العمل الفنى العادى" و "العمل الفنى الديني" من خلال حجاب للفنانة وجلباب وذقن للفنان ، مما مهد الأرضية ورسخ آليات الجماعات الدينية فى استخدام تلك المظاهر للتميز والعسكرة والاستقطاب .

٢- تسليم الشئون الدينية والثقافية والإعلامية والتعليم إلى مجموعة إخوانية (على رأسها الباقورى وكمال الدين حسين ، بغض النظر عن صراعات السلطة والتنافس والانشقاقات داخل جماعة الإخوان) .

٣- تحويل التعليم الدينى الأزهرى إلى مؤسسة تعليمية موازية فى المجتمع ، خاصة فى الصعيد والريف ، وفى العلوم ، مما ساعد على القضاء على تكافؤ الفرص ، وخرج به عن نطاقه ومجاله ، وأوجد آليات معينة للوصاية على عقل الأمة ، وأخل بالتوازن بين عنصرى الامة ، وأفسد الفكر العلمى ، وأخضع الجميع لمحاكم تفتيش مبكرة .

٤- إدماج الهيكل الاقتصادى فى لحمة الإدارة ، وتحويله إلى منظومة موظفين ، مما عطل كفاءته ، وأحدث خللا وتشويها على مستوى البناء كله ، وانعكس ذلك على أساليب وأنماط الحياة والتفكير . (ولنا فى مقاولات وسكن عثمان أحمد عثمان ، وصناعة عزيز صدقى ، وزراعة سيد مرعى ، وإدارة وأمن صلاح نصر خير الأمثلة) .

ولأن السادات هو جزء عضوى من التركيبة السابقة ، فقد تحالف مباشرة مع الفاشية الدينية ، تحت شعار التعددية السياسية .ومحاربة اليسار ، كما لم يكن السادات وسلوكياته منفصلا عن النظام العالمى ككل ، الذى اتجه بثقله إلى هذا

التجاه ، لمقاومة التغيرات الحادثة ، وكانت قمته فى التاتشرية – الريجانية .

ولطبيعة المجتمع المصرى ، فقد كان يكفى أن يرفع السادات (رأس السلطة والدولة) شعار دولة الأمن والإيمان ، حتى تتحجب الموظفات ، وتطلق اللحى ، ويسارع الإعلام بالتحول إلى المناخ الدينى والجنائزى منه بصفة خاصة .

وبعد ذلك – ولغيره الكثير – نتساءل عن الأرضية التى مهدت وفرضت سرطان العنف والجماعات الدينية . حتى التجارب الجديدة التى نحاول بها ومنها الخروج بالمجتمع من أزمته الراهنة تتم بنفس الأساليب والمنطق وعلى نفس الأرضية، وتقدم لنا نماذج المجتمعات العمرانية الجديدة أوضح مثال على ذلك ، فالمجتمعات العمرانية الجديدة لها ٤ نماذج هى :

١- المدن الجديدة (العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر ، ... إلخ) .

٢- الأراضى الصحراوية المستصلحة والموزعة على الخريجين أو المستفيدين .

٣- المنشآت السياحية (سيناء ، شاطئ النيل ....) .

٤- الأحياء العشوائية .

رغم كافة الفوارق والتحفظات ، تتم بنفس المنطق (الإدارى والشعبى) ، وعلى نفس الأرضية ، وبنفس الأساليب .

هياكل الإدارة ، والمجالس المختلفة ، وكثير من القيادات – نفس المجموعة ، فى كل مكان ، بنفس العقلية والأساليب – فقدوا ، منذ فترة ، روح المبادرة والإبداع ، ليس لعيب فيهم ، ولكن لأن الزمن تجاوزهم – ينتمون لجيل الحرب العالمية الثانية والتليفون والتليفزيون الأبيض والأسود ، وليس لعصر الأقمار

الصناعية ، ويكفيهم التستر وراء الشعارات الدينية والأخلاقية البراقة لتغطية ذلك القصور والتخلف ، واستخدام الشعارات الحديثة لمصادرة الآخرين وابتذال وإفساد المعطيات المختلفة .

الكلمة الأخيرة

إن عناصر مستقبل مصر لا تتجزأ ، ولا تفصل عن واقعها الإقليمي والعالمي .

والأمن القومى ، والممارسات السياسية ، وعقلنة التفكير ، والسلوك المرورى ، والخدمات الإدارية ، هى أمور متصلة ، مترابطة ، الفصل بينها أكاديمى للدراسة والبحث فقط .

ونقترح النقاط التالية كبرنامج مرحلى للمساعدة فى تجاوز الوضع الحالى : –

١- الفصل بين السلطة ، بعناصرها المختلفة ، والدولة كأجهزة إدارية وظيفية ، وعدم الجمع بينهما ، وعدم الجمع بين الوظائف المختلفة لنفس الأشخاص .

٢- توسيع قاعدة المشاركة السياسية ، خارج جيل الحرب العالمية ، والدولة ، والتعبير عن من يملك سياسيا ، وترسيخ آليات الديمقراطية البرلمانية ، ولا يعنى ذلك انهيار السلطة المركزية أو الالتفاف حولها .

٣- إعادة صياغة المؤسسات الأمنية ، ومعاييرها ، وأدوارها ، ومهامها ، وخطوط التقاطع والتماس مع بقية أجزاء المجتمع ، وأشكال السلطة المختلفة .

٤- إن الخصخصة يجب أن يتغير أساليب وبرامج تطبيقها ومجالاتها ، لتشمل كافة القطاعات الاقتصادية فعلا لا قولا ، مع إعادة ترتيب أشكال الضمان المادى والصحى لقطاعات المجتمع.

٥- إلغاء الوصايا الأخلاقية والاجتماعية لجهاز الدولة [لا يعنى هذا الانحلال أو التسيب] ، وأن تكون الديمقراطية الاجتماعية

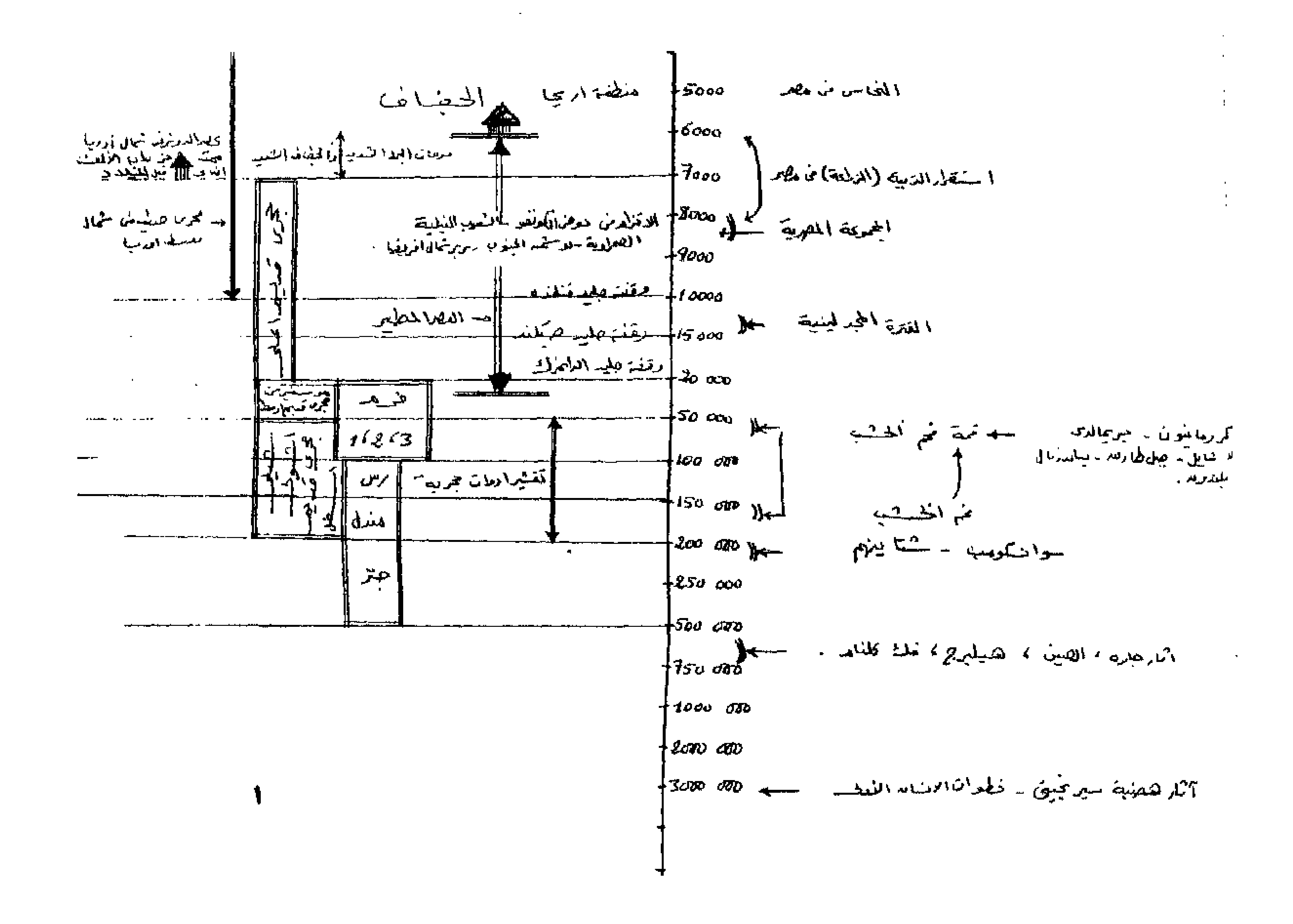
جزءا من العمل الاجتماعى وقيمه ، مع إعادة لنظر فى الأجهزة الرقابية [أجهزتها ، هياكلها ، موضوعاتها ، أدوارها ... إلخ].
٦- قيام حركة إصلاح دينى ، وخروج الدولة من حلبة المنافسة حول من "أكثرنا إسلاما وطقوسا" ، وأن تحدد مواقف معلنة وصريحة بخصوص التصدى للإرهاب [أمنيا ، سياسيا ، فكريا ، إقليميا ، دوليا] ، وإلغاء ازدواجية أشكال وأساليب التعبير والممارسة [مثل الشورت الشرعى ، البنك الشرعى ، السكن الشرعى ... إلخ].
٧- إعادة هيكلة التعليم [الأزهرى ، العام ، الفنى] فى منظومة واحدة ، وفصل التعليم الدينى عن التعليم العلمى .
٨- المشروع الشرق - أوسطى ، والشراكة المصرية الأوروبية والأمريكية هى الأسس المطلوبة والمشروع الوحيد الذى يسمح بانطلاقة مصرية .
٩- إن مستقبل مصر الحقيقى فى صحرائها وبحرها وشمسها ، والعلوم الحديثة ، ومنظومات القيم المرتبطة بالعمل والعقل ، وليس بالمصطبة والرعى ، وما عداها يدخل تحت باب عملية تراكم بطيئة لتفجير الوادى بطريقة "Under - control" ، أو - فى أحسن الأحوال - : ترحيل لمشاكل وأزمات المجتمع .
كذلك إدارة جديدة ، بعقلية جديدة ودماء جديدة .

إن شراكة كاملة مع النمط الغربى - ونقول شراكة وليس استيرادا ، وبصفتنا الشريك الأصغر ، وبعقلية الراغب فى التعلم ، وعلى قاعدة الاستيعاب - الانطلاق وبالخصوصية المصرية - هى أحسن سبيل أمامنا .

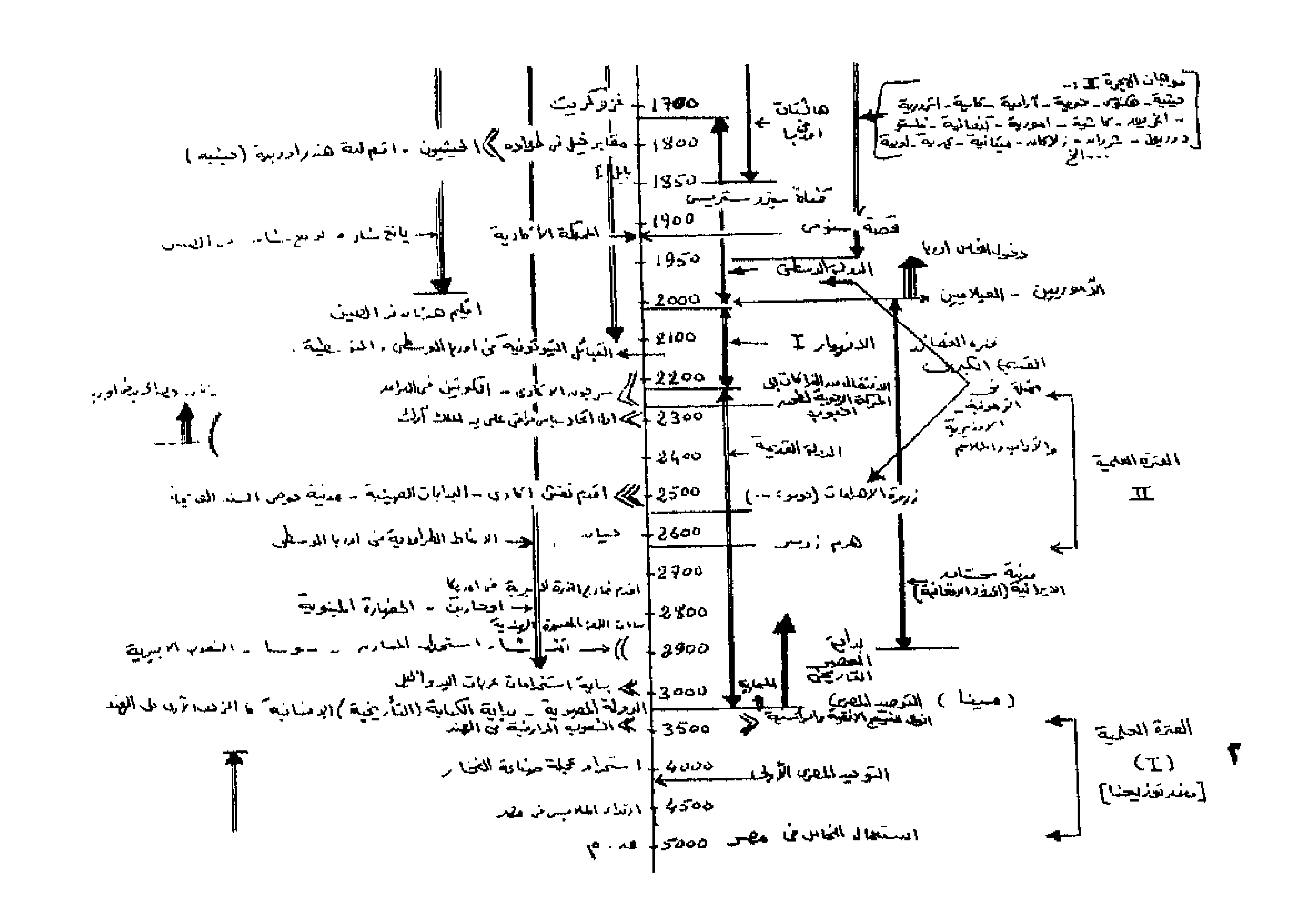
شراكة يكون من أهدافها وممارساتها أن تستطيع تصنيع الموصلات الحديثة ، وليس تجميع صندوق الدنيا التليفزيونى ،

وأن يكون مستقبلنا مرتبطا بالطاقة الشمسية والنووية أكثر منه : مترو الأنفاق .

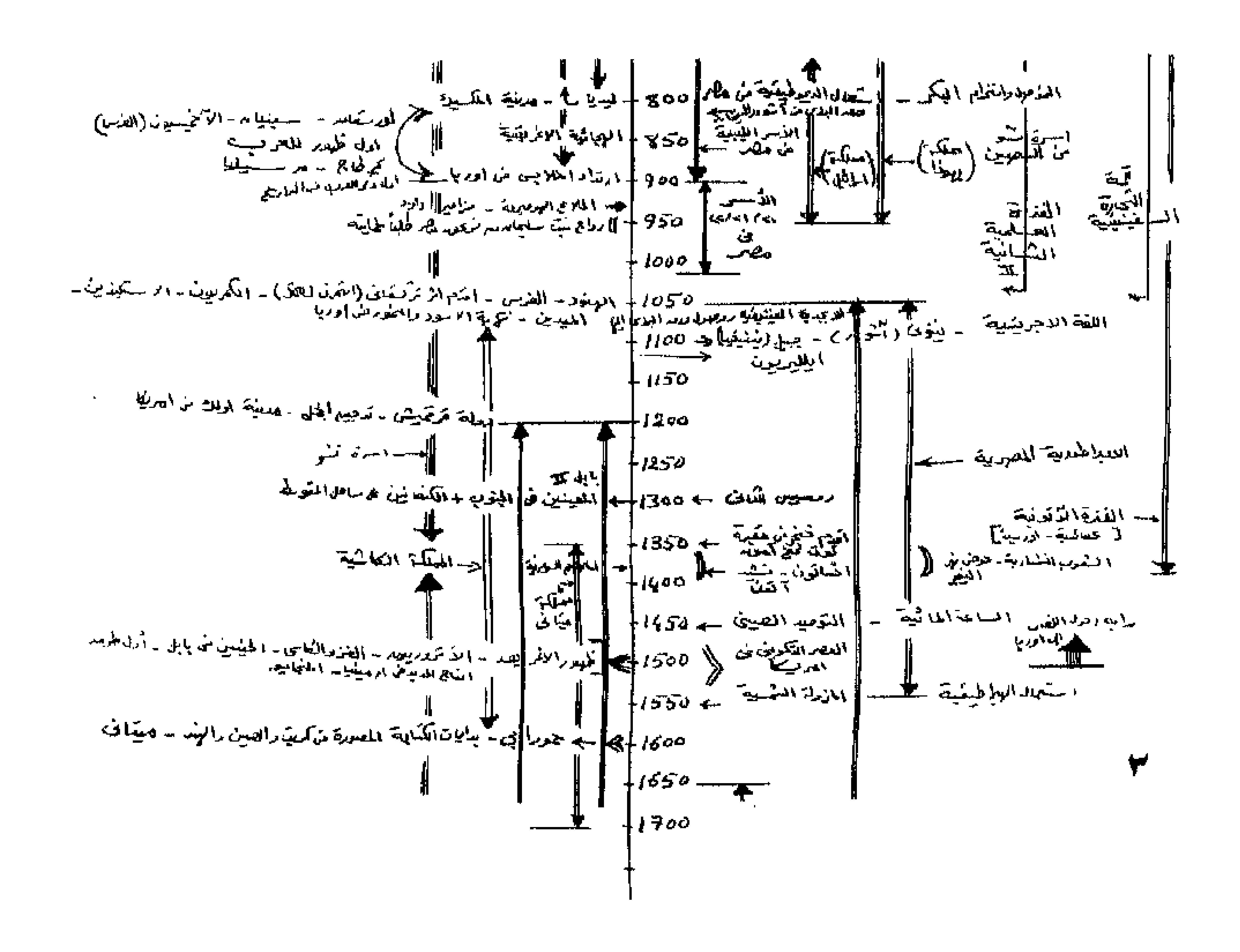
الملاحق

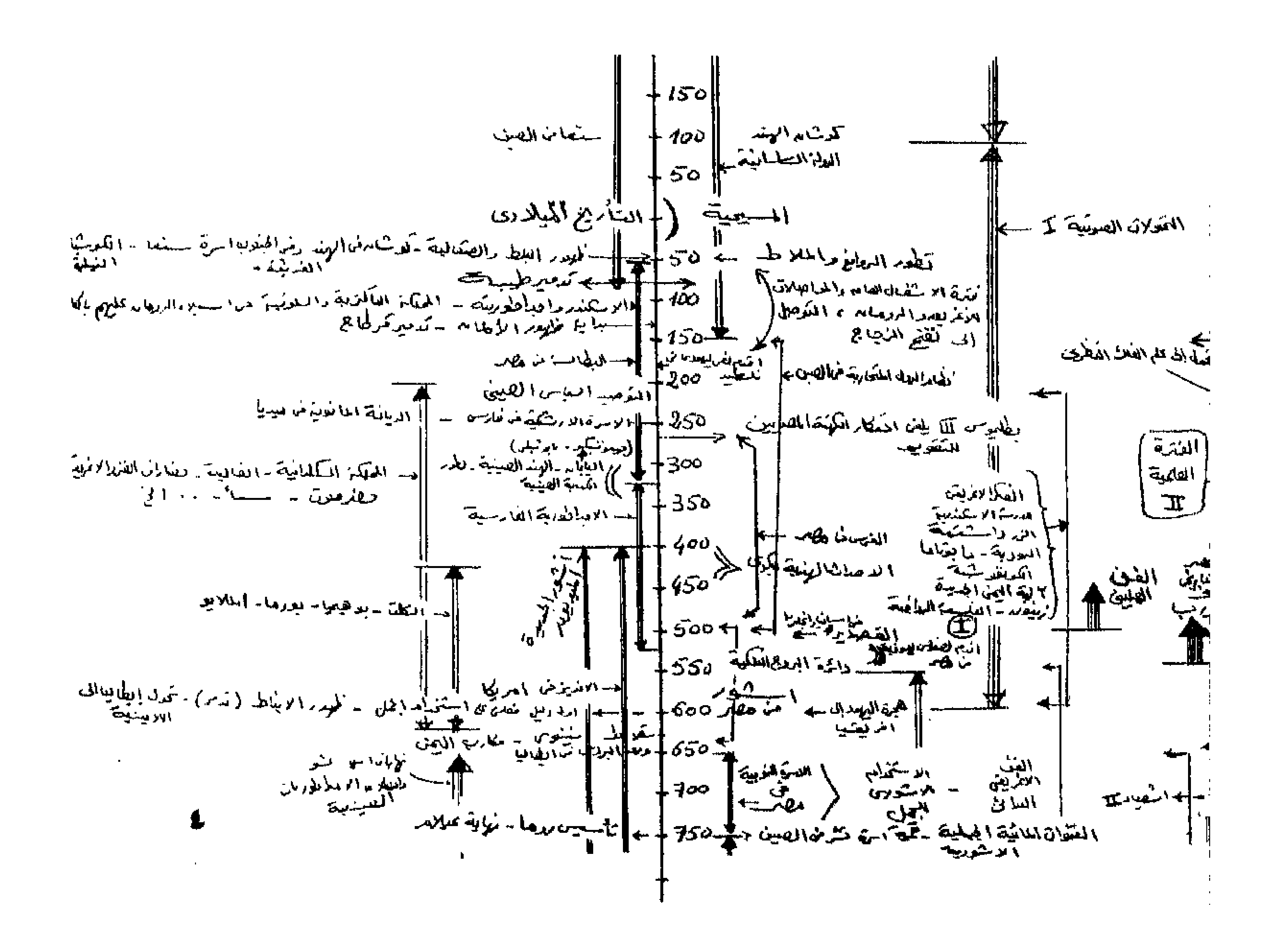


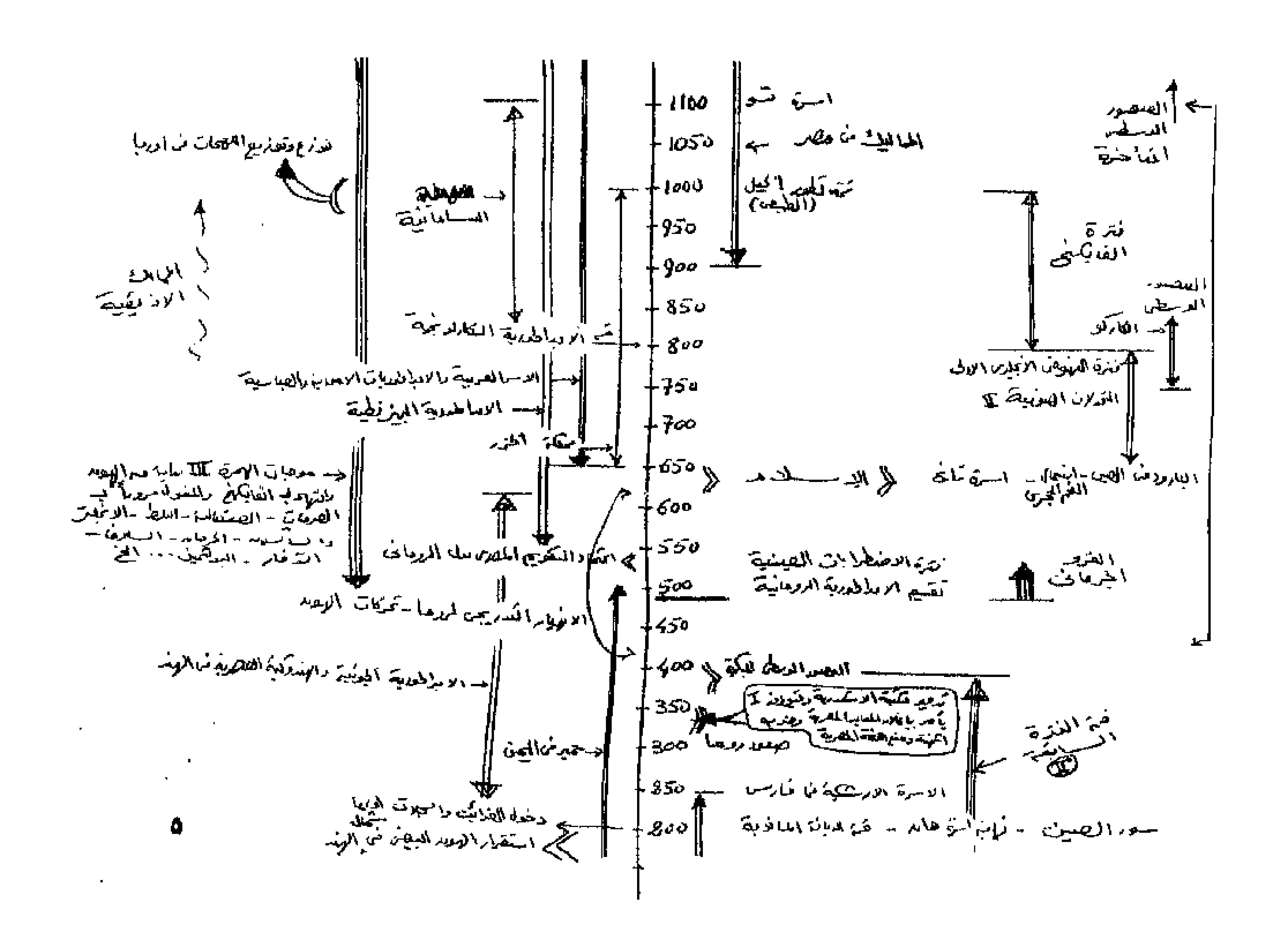
5000
6000
7000
8000
9000
10000
15 000
20 000
50 000
100 000
150 000
200 000
250 000
500 000
750 000
1000 000
2000 000
3000 000
منطقة اريحا
الجفاف
النحاس في مصر
استقرار الزراعة في مصر
الحركة المصرية
الفترة الجليدية
رقعة جليد الدانمرك
فرنسا
1،2،3
رس
مندل
جنز
تغييرات جوية
سوانسكومب - شتاينهايم
نم الخشب
قمة نم الخشب
آثار حجرية سيرنجتي - خطوات الانسان الاولى
1



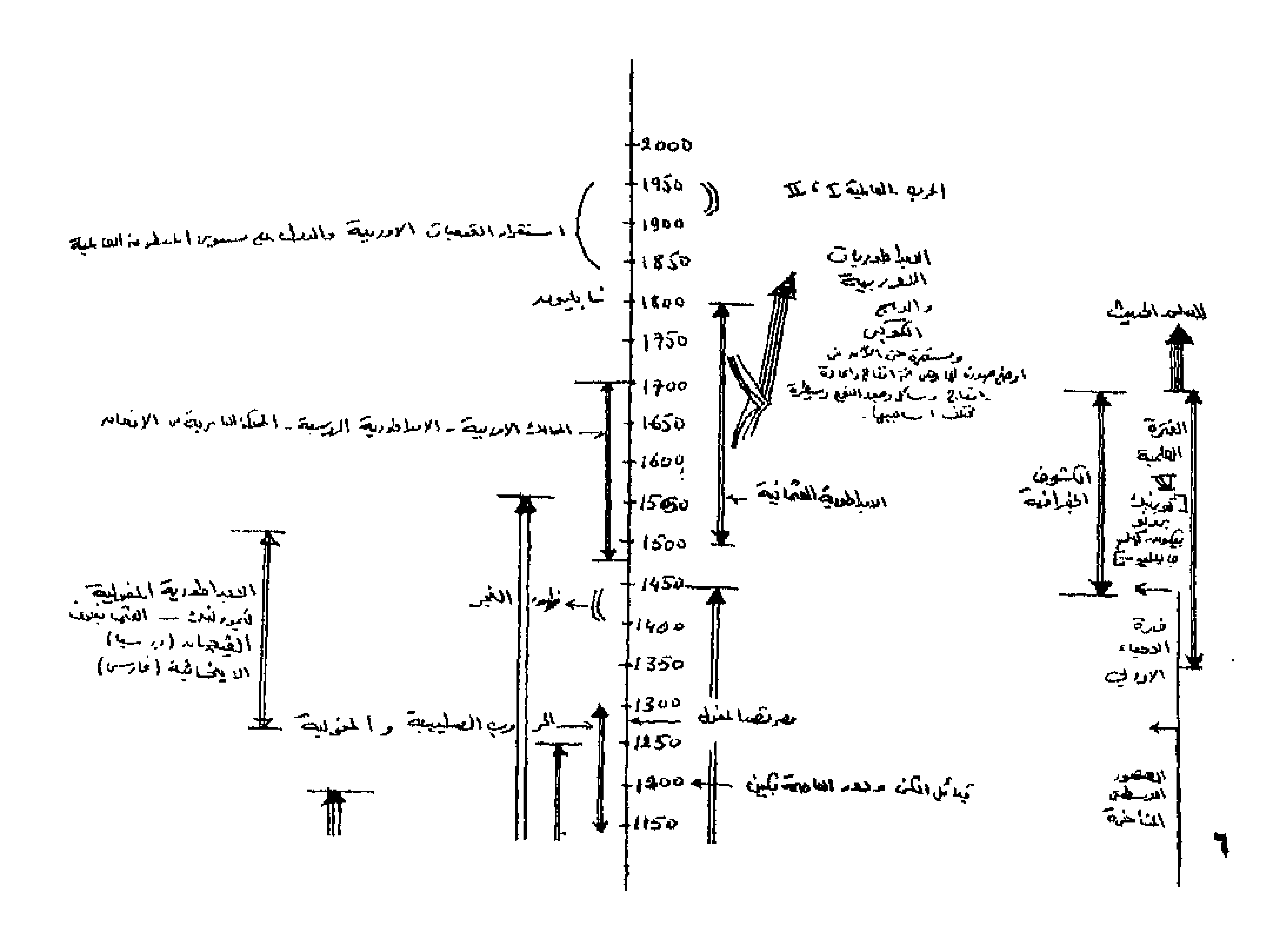
1700
1800
1850
1900
1950
2000
2100
2200
2300
2400
2500
2600
2700
2800
2900
3000
3500
4000
4500
5000
المملكة الأكادية
قصة سنوهي
الدولة الوسطى
الأموريين - العيلاميين
الدولة القديمة
هرم زوسر
بداية العصور التاريخية
(مينا)
التوحيد المصري الأول
استعمال النحاس في مصر
الفترة المحلية
II
الفترة المحلية
(I)


800
850
900
950
1000
1050
1100
1150
1200
1250
1300
1350
1400
1450
1500
1550
1600
1650
1700
السيادة المصرية
التوحيد الصيني
المملكة الكاشية
رمسيس الثالث
٣


150
100
50
التاريخ الميلادى
المسيحية
التحولات الصوتية I
50
100
150
200
250
300
350
الامبراطورية الفارسية
400
450
500
550
600
650
700
750



1100
1050
1000
950
900
850
800
750
700
650
600
550
500
450
400
350
300
250
200
المماليك في مصر
فترة الفايكنج
العصور الوسطى المتأخرة
الدولة الساسانية
الامبراطورية الكارولنجية
الامبراطورية البيزنطية
الممالك الافريقية
الاسلام
فترة الاضطرابات الصينية
تقسيم الامبراطورية الرومانية
الغزو الجرماني
صعود روما
سور الصين


2000
1950
1900
1850
1800
1750
1700
1650
1600
1550
1500
1450
1400
1350
1300
1250
1200
1150
الحرب العالمية I ، II
نابليون
الامبراطوريات الغربية
الامبراطورية العثمانية
الكشوف الجغرافية
العصر الحديث
الامبراطورية المغولية
الحروب الصليبية والمغولية
العصور الوسطى المتأخرة

إن فترات التغير والتحول التى تجتازها التكوينات الاجتماعية (خاصة إذا تعلق ذلك بهياكلها الأساسية) تطرح - بطريقة تبدو تلقائية - كافة الموضوعات للنقاش ، حتى التى اعتبرت بدهية . يمس ذلك الأصول والفروع فى ماضيها وحاضرها .

والنوع الإنسانى تعرض لكثير من التحولات والتراكمات خلال القرن الـ٢٠ . والمتابعة التفصيلية لذلك هى شأن تخصصى .

وعندنا ، فإن المساهمات الفكرية لرؤية كلية للنوع فى عمومه ، ولمصر خاصة ، لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة، أو تتصف بالجزئية ، التخصصية ، أو بتمصير وتعريب وجهات النظر الأخرى ؛ مما جعل رؤيتها أحادية الجانب فى أحسن الأحوال .

مع التنبه والتنبيه أنها تتم فى ظل كم هائل من المحظورات والمحاذير التى جعلت منا منط التفكير ، رغم أنه العلة الإنسانية .

وتقوم الخطوط الحمراء المعلنة وا تشكل شبكة عنكبوتية بتحديد قوالب وأنماط يصعب معها القيام بإنجاز حقيقى ، كما على فهم وتصور الواقع الجديد.

المؤلف